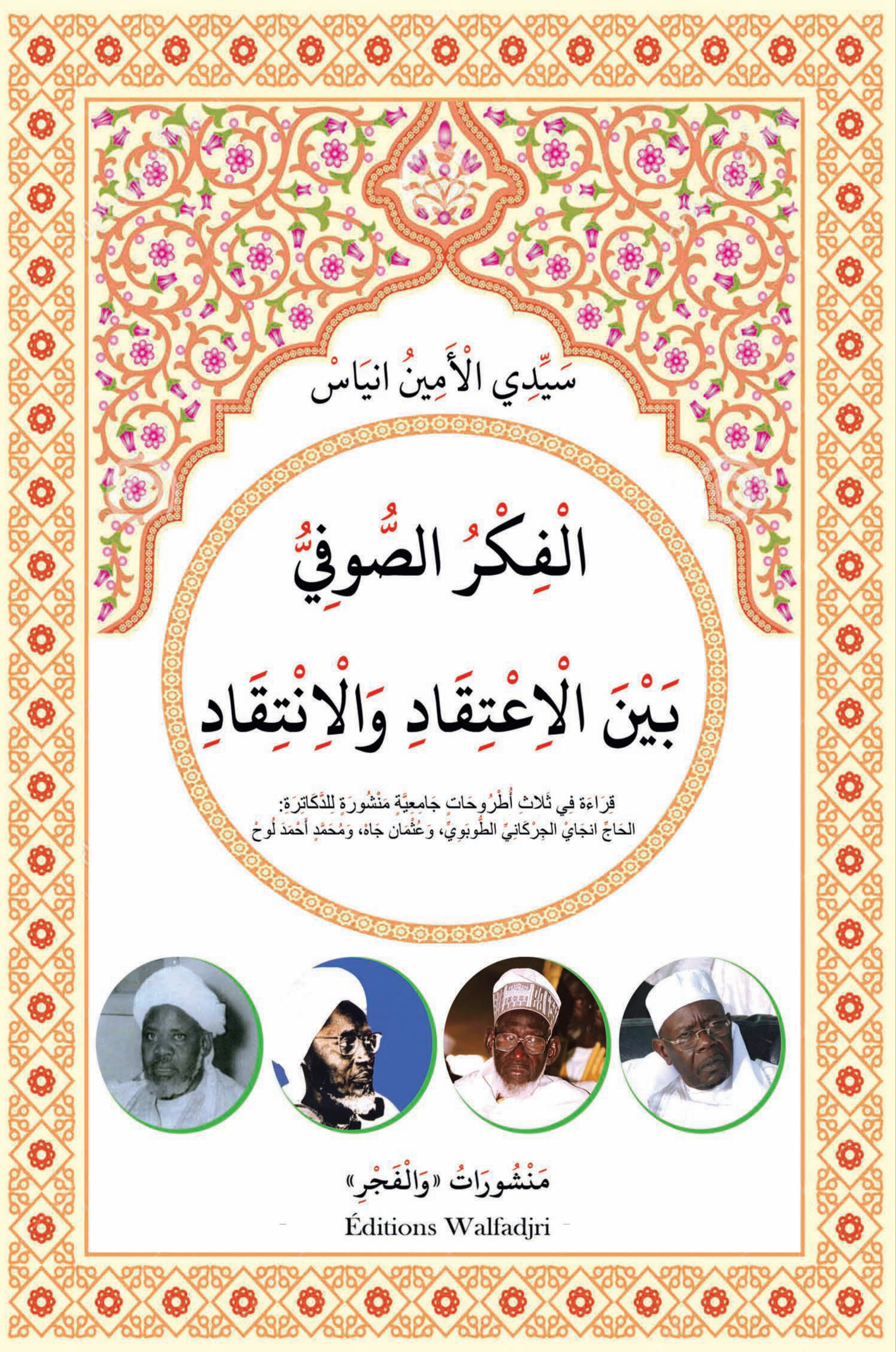


سَيِّدِي الْأَمِينُ انيَاسْ
الْفِكْرُ الصُّوفِيُّ
بَيْنَ الْاِعْتِقَادِ وَالْاِنْتِقَادِ
قِرَاءَة فِي ثَلَاثِ أُطْرُوحَاتٍ جَامِعِيَّةٍ مَنْشُورَةٍ لِلدَّكَاتِرَةِ:
الحَاجِّ انجَايْ الجِرْكَانِيِّ الطُّوبَوِيِّ، وَعُثْمَان جَاهْ، وَمُحَمَّدٍ أَحْمَدَ لُوحْ
مَنْشُورَاتُ «وَالْفَجْرِ»
Éditions Walfadjri

سَيِّدِي الْأَمِينُ انيَاسْ

الْفِكْرُ الصُّوفِيُّ

بَيْنَ الِاعْتِقَادِ وَالِانْتِقَادِ

قِرَاءَة فِي ثَلاثِ أُطْرُوحَاتٍ جَامِعِيَّةٍ مَنْشُورَةٍ لِلدَّكَاتِرَةِ:
الحَاجِّ انجَايْ الجِرْكَانِيِّ الطُّوبَوِيِّ، وَعُثْمَان جَاهْ، وَمُحَمَّدٍ أَحْمَدَ لُوحْ

مَنْشُورَاتُ «وَالْفَجْرِ»
Éditions Walfadjri

سَيِّدِي الْأَمِينُ انيَاسْ، «الْفِكْرُ الصُّوفِيُّ بَيْنَ الِاعْتِقَادِ وَالِانْتِقَادِ: قِرَاءَةٌ فِي ثَلَاثِ أُطْرُوحَاتٍ جَامِعِيَّةٍ مَنْشُورَةٍ لِلدَّكَاتِرَةِ: الْحَاجِّ انْجَايْ الْجَرْكَانِيِّ الطُّوبَوِيِّ، وَعُثْمَانْ جَاهْ، وَمُحَمَّدٍ أَحْمَدَ لُوحْ»، الطَّبْعَةُ الْأُولَى، مَنْشُورَاتُ «وَالْفَجْرِ»، دَكَارْ، 2018م، 114ص.

الْمُؤَلِّفُ: سيدي الأمين انياس، الْعُنْوَانُ: «الفكر الصوفي بين الاعتقاد والانتقاد: قراءاة في ثلاث أطروحات جامعية منشورة للدكاترة: الحاج انجاي الجركاني الطوبوي، وعثمان جاه، ومحمد أحمد لوح »، بَلَدُ الطَّبْعِ: السنغال دكَارْ، النَّاشِـرُ: منشورات «وَالْفَجْرِ» [Éditions Walfadjri] الطَّبْعَةُ: الْأُولَى، سَنَةُ النَّشْرِ: 2018م. عَدَدُ الصَّفَحَاتِ:114. الْمِقْيَاسُ: 15 x 21.

الْمَطْبَعَةُ: La sénégalaise de l'imprimerie

التَنْسِيقُ وَ الإِخْرَاجُ الطِبَاعِيُّ عُثْمَانَ جَوْ

النَّاشِـرُ: مَجْمُوعَةُ «وَالْفَجْرِ» الإِعْلَامِيَّةِ بِالسِّنِغَالِ، شارع: (12, Route du Front de Terre, BP : 576, Dakar, Sénégal)

رَقْمُ الْإِيدَاعِ (الْمَكْتَبُ السِّنِغَالِيُّ لِـحُقُوقِ الْمُؤَلِّفِ):

BUREAU SENEGALAIS DU DROIT D'AUTEUR

(BSDA) : 39686210314

دَكَارْ، مارس، 2018م

Dakar, Mars, 2018


بسم الله الرحمن الرحيم



كتَبَ الخَلِيفَةُ «عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ» إِلَى «الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ» يَقُولُ: (اجْمَعْ لِي أَمْرَ الدُّنْيَا، وَصِفْ لِي أَمْرَ الْآخِرَةِ). فَكَتَبَ «الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ»:

(إِنَّمَا الدُّنْيَا حُلْمٌ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ، وَالْمَوْتُ مُتَوَسِّطٌ، وَنَحْنُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ؛ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَا، وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ ضَلَّ، وَمَنْ حَلِمَ غَنِمَ، وَمَنْ خَافَ سَلِمَ، وَمَنِ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ، وَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ؛ فَإِنْ زَلَلْتَ فَارْجِعْ، وَإِذَا نَدِمْتَ فَأَقْلِعْ، وَإِذَا جَهِلْتَ فَاسْأَلْ، وَإِذَا غَضِبْتَ فَأَمْسِكْ).

يَا عُبَّادَ الْقُصُورِ رِفْقًا بِعُبَّادِ الْقُبُورِ

أَبُو الْحَسَنِ عَلِيٌّ الْحَسَنِيُّ النَّدَوِيُّ الْهِنْدِيُّ

(دَخَلَ شَاعِرٌ عَلَى مَلِكٍ؛ وَهُوَ عَلَى مَائِدَتِهِ فَأَدْنَاهُ الْمَلِكُ إِلَيْهِ؛ وَقَالَ لَهُ: «أَيُّهَا الشَّاعِرُ»؛ قَالَ: «نَعَمْ؛ أَيُّهَا الْمَلِكُ». قَالَ الْمَلِكُ؛ «وَ»؛ فَقَالَ الشَّاعِرُ عَلَى الْفَوْرِ» «إِنَّ»؛ فَغَضِبَ الْمَلِكُ غَضَبًا شَدِيدًا، وَأَمَرَ بِطَرْدِهِ. فَتَعَجَّبَ النَّاسُ، وَسَأَلُوا: «لَمْ نَفْهَمْ مَا الَّذِي دَارَ بَيْنَكُمَا أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ أَنْتَ قُلْتَ: «وَ»؛ وَهُوَ قَالَ لَكَ: «إِنَّ»؛ فَمَا «وَ» وَ«إِنَّ»؟! قَالَ أَنَا قُلْتُ لَهُ «وَ»؛ وَأَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾. [سورة الشعراء: 224]؛ فَرَدَّ عَلَيَّ؛ وَقَالَ: «إِنَّ»؛ يَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى "﴿... إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةًۚ...﴾. [سورة النمل: 34].



إِهْدَاءٌ

أهدي ثمرة هذا العمل الذي أتوخَّى منه نُصرةَ الحق، ودحض الباطل؛ إلى والدتي الشريفة «آمنةَ حَيْدَرَهْ»بِنْتِ بَرْهَامَ العَلَوِيَّةُ، التي رَبَّتْنِي على الإنصاف والنظر إلى الأشياء بموضوعية؛ فكانت تُذَكِّرُنِي أن لكل مسألة قولين!

وإلى والدي العلامة «الْخَلِيفَةِ الحاج محمد انيَاسْ» «رحمة الله عليه» ذلك الجبل الشاهق، والطود الشامخ الذي جَرَّدَ «مُرْهَفَاتِهِ» لقطع دابر الباطل، واستئصال شأْفة التُّرهَاتِ.

وإلى عَمِّي شيخ الإسلام، وسعادة الأنام، «أبي إسحاق الشيخ إِبرَاهِيمَ انيَاسْ»، مجدد العصر، الذي رفض الجمود على النص، وأبى الركون للتقليد.

كما أهدي هذا الجهد المتواضع إلى «الشيخ مُحَمَّدِ الْبَشِير البَكِّيِّ» بن خادم رسول الله «الشيخ أحمد بَمْبَ» الذي أنار آفاق «الطريقة المريدية» الرحبة: بعلمه، وحلمه، وتآليفه.

وإلى السبط النجيب العلامة الشيخ «محمد المنتقى أحمد تال»، الذي جمع تراث وأخبارَ العَلَم المجاهد والعالم العامل الشيخ «الحاج عمر الفوتي» في تأليف جامع مانع.

وإلى الشيخ «عبد العزيز سي الأمين» الخليفة العام للتجانية الراحل الذي سعى إلى جمع تراث البيت المالكي الزاخر بالعلوم والفنون؛ في موسوعة أدبية وعلمية.

فعلى خطاهم دَرَجْتُ، وبمعالم طريقهم اهتَدَيْتُ... وفق الله الخلف كما وفق السلف.

سَيِّدِي الأَمِينُ انيَاسْ

مُقَدِّمَةٌ

هذه وقفة خاطفة مع إنتاج أدبي وفكري لثلاثة أقلام من صفوة السنغاليين الذين نشرُوا أطروحات جامعية جذابة؛ جعلتني رياحينها أقف وقفة المتأمل، في هذا الميدان الفكري والأدبي الثري، وفي هذه المشاداة بين الأصالة والحداثة، والوهابية والصوفية.

صراع قديم في تاريخ الإسلام وحركته في منطقة ساحل الغرب الإفريقي بين: وهابية وافدة من «دول الخليج»، وصوفية منتشرة في الدول المغاربية، والغرب الإفريقي؛ وبين علماء اللغة والفقه؛ ممن وقفوا على ظاهر النصوص؛ فوصفوا بعلماء الرسوم وأهل الظاهر؛ وآخرين في الطرف المقابل؛ جمعوا بين التنزيل والتأويل، والمسطور وما بين السطور؛ فوصفوا بالعارفين بالله وأهل الباطن.

فدار الجدال والتراشق بينهما بلهجة شديدة؛ تصل إلى حد الاتهام بالكفر والابتداع والشرك؛ من طرف علماء الظاهر، وبالجهل، والسفاهة، والعمالة، من علماء الباطن.

مضت على هذه الظاهرة أجيال تلو الأخرى، فرسخت أقدام التصوف في «السنغال» من بين دول ساحل الغرب الأفريقي، وبقيت السلفية، أقرب إلى حركة مراهقين؛ تتلاشى بتقدم السن، ومرور الزمن، أو بتجفيف المنابع!

إن مصدر التمويل للطرق الصوفية عموما محليٌّ؛ بينما تمويل الوهابية خارجي، فالأول: شعوبي؛ يتسع، ويزداد قوة مع الأيام. بينما الثاني تابع لظروف شرق أوسطية يحكمها قانون المد والجزر؛ فينبسط؛ وينكمش؛ تبعا للتقلبات الدولية.

وكان الجدل -ولازال- شفويا، ذا طابع إنكاري؛ وإذا انتقل إلى الكتابة: فهجوم من الطرف الوهابي، ورد من الطرف الصوفي، يليه المراء، والتراشق لحد التنابذ والتقاذف.

ثم جاء الجيل الصاعد من أبناء «السنغال» بأطروحات جامعية تجمع بين النقد والاعتقاد، وبين الرفض والقبول، والهدم والبناء.

فجمعت رؤوس الأقلام، وبطريقة مقتضبة، وبدأت بطريقة الهرم المقلوب: بآخر الإنتاج؛ لأرتقي نحو الأقدم صدورا.

مع وقفة سريعة في المبحثين: الأول والثاني؛ حول إنتاج ما زال في بداياته؛ وذلك لكونه بادرة لازالت في أول الطريق، ومبادرة تستحق التشجيع، فمررت بها سريعا، ليتسنى تقييمها مع الأيام.

ووقفت أكثر مع الأطروحة القديمة الناقدة في المبحث الثالث من هذا الطرح، للدراسة والتحليل بطريقة موضوعية.

كنت قد وقفت على رسالة الدكتور «الحاج انجاي الچركاني» : (الشيخ محمد البشير امباكي ومنهجه في تأليف كتابه «منن الباقي القديم في سيرة

الشيخ الخديم»)؛ فشد انتباهي كون الدكتور قد جاء بمفهوم جديد في معالجة قضايا التراث الفكري والأدبي العربي الصوفي بـ«السنغال».

ثم طالعتُ عقب ذلك رسالة الدكتور «عثمان جاهْ» تحت عنوان: «التجانية في الأدب السنغالي العربي»، وجاءت هي الأخرى بمنظور جديد لهذا التراث الأدبي الصوفي؛ وصلا للحاضر بالماضي؛ وفي سياق جديد، حيث عودتنا النخبة، القطيعة بين الأدب الصوفي للرعيل الأول، والنزعة السلفية للجيل الصاعد.

ثم خطرت ببالي رسالةٌ سابقة لنيل درجة الماجستير تحت عنوان: «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة»، والتي صنفت وأصدرت في جزأين؛ للكاتب الدكتور «محمد أحمد لوح»، بطرح معهود عند الوهابية في موقفها تجاه التصوف.

وكنت ترددت في تناول هذه القضايا الشائكة بالدراسة لعدة أسباب، منها أن الموضوع: مثار جدل ومدعى تحزب؛ بجانب أن هذا العمل يحتاج إلى بحث، والوقت لدي يكاد يكون معدوما.

ثم عدتُ في قرار نفسي لأقول: إن جمعت بين الأطروحات الجامعية الثلاثة في أسطر لا تكون بالقليل المخل، ولا بالكثير الممل؛ أكون قد وقفت على الركائز الفكرية الأساسية والمجتمعية في «السنغال».

ثم آثرت أن أطيل أحيانا في النقل والتنصيص، دون التصرف في النصوص مراعاة للأمانة العلمية، وذلك لأن الأصول ليست في متناول

السواد الأعظم؛ علاوة على وجود آخرين ليست لديهم خلفية علمية في المجال، ولا في الموضوع ومرتكزاته، وأعتبر هذا الطرح نظرة تحليلية، وليس بحثا أكاديميا، فلم أر لزاما الاسترسال والإسهاب؛ بل اكتفيت بالإشارة المقتضبة، مع التركيز على أساسيات الموضوع؛ سيما أن بعض الدراسات، فيها من الحشو وتكديس المعلومات- جريا خلف الكم لا الكيف؛-مما ليس تحته طائل.

كما لم أكثر من العزو؛ والإحالة؛ لئلا يتحول هذا التأليف المختصر إلى مجلدات؛ لا أرى لها لزوما في هذا الظرف.

واللهُ وَلِـيُّ التَّوْفِيقِ

الْـمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

عَلَى هَامِشِ «مِنَنِ الْبَاقِي الْقَدِيمِ»

الْـمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

عَلَى هَامِشِ «مِنَنِ الْبَاقِي الْقَدِيمِ»

الحاج انجَايْ الجَرْكَانِيُّ الطُّوبَوِيُّ، «الشيخ محمد البشير ومنهجه في تأليف كتاب (مِنَنِ الْبَاقِي الْقَدِيمِ فِي سِيرَةِ الشَّيْخِ الْخَدِيمِ)»، ط: 1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2016م، 400 ص.

تَوْطِئَةٌ:

إن أطروحة الدكتور الحاج انجاي تناولت الطريقة المريدية؛ وهي حركة فكرية صوفية وأدبية ثرية، برجلها الأمة خادم الرسول «الشيخ أحمد بمب»، وبابنه الأبرِّ الشيخ «محمد البشير امباكي»؛ واضع معالمها ومقاصدها: (جمع عزيز مقتدر).

ثم إن رسالة الدكتور «عثمان جاه»، هي الأخرى: «التجانية في الأدب العربي السنغالي»: سعت إلى لمِّ شتات في بوتقة جامعة مانعة.

أما أطروحة «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» فجاءت هي بدورها في الاتجاه المعاكس؛ لتكون ثالثة ثلاثة؛ يتم بها الجمع بعد الفرق بين: إخوة النهار؛ وأعداء الليل! لعل وعسى أن يتعرف بعضهم على بعض.

فـ«الحاج انجاي الجركاني» جاء بطرح جديد بين نخبة كانت في الماضي، فضلت القطيعة بين ما كان عليه الأسلاف من تصوف؛ وما عليه الجيل الصاعد من عصرنة، أوتمسلف؛ فأراد الفتى أن يضع جسرا بين السلف والخلف، وبين الأصالة والحداثة؛ ليجمع الأدب، والفكر في إطار واحد وبمنهجية قويمة، وأسلوب علمي رصين؛ من خلال دراسة أكاديمية حديثة، بعيدة عن العقائدية الموجهة؛ لينتهي إلى طرح موضوعي؛ يخدم فيه العلم والمعرفة، وليُعَرِّفَ فيه بإنتاج علماء بلده: القاصي والداني؛ وليدرك الغير وكل غيورٍ أن تربته ثرية وغنية برجالها العظام؛ وهم أشهر من نار على عَلَمٍ.

في هذا المبحث؛ حاولت وضع النقاط على الحروف بتلخيص يجمع بين قراءتي لكتاب «منن الباقي القديم»، وبين فحوى الرسالة التي تقدم بها الباحث «الحاج انجاي الجركاني».

أَبْعَادٌ وَآفَاقٌ:

كنتُ قد طالعت كتاب «منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم»؛ فشد انتباهي هذا الطود الشامخ من العلم والمعرفة، وهذه القامة العلامة الفهامة

الذي أوتي من الحكمة قسطا كبيرا؛ والذي نهل من معين لا ينضب، فبعث القلم بمدادٍ يجسده سائل الذهب؛ لما نال من شرف؛ ودَوَّنَ في صفحات ناصعة؛ ما لو نشر على جبل لرأيته خاشعا متصدعا!

لقد أجاد الشيخ «محمد البشير امباكي» في هذه التحفة؛ مقيما فيها التاريخ الذي لا يتجاوز عادة سرد الأحداث، وضبط التواريخ لحدث ما؛ أو لحياة فرد بعينه... فاعتبر «الشيخ محمد البشير» – كما يبدو لي – أن كتاب «إرواء النديم من عذب حب الخديم» للشيخ «محمد الأمين جوب دَغَانَا»؛ -الذي كان بإشارة من الشيخ البشير- رغم جودته، وسمو قيمته العلمية؛ لا يخرج عن ذلك النمط المألوف في كتابة التاريخ؛ فأراد الشيخ «محمد البشير» أن يكتب سيرةً وراءها مقاصد هادفة، في حياة رجل تدعمه السماء؛ و هو يسير على الأرض هونا، مع النبيين والصديقين و الشهداء و الصالحين؛ فجاءت أقدامه من تلك! نور يبدد الظلام، و نار يصطلي بها المدثر من قراصة البرد؛ فعاد الشيخ «البشير» بخطى ثابتة إلى المنبع الصافي؛ ليتتبع مجرى المياه المتدفقة، من خلال رجل أمة برمتها، ففتش في بطون الكتب النقية و النفيسة، واسترجع حياة العظام ممن ساروا على الدرب، فكتب بأسلوب مقتضب، فكانت تحفة فنية رائعة، ومدونة أدبية شامخة؛ تفوح عطرا و عنبرا، وتجذب نحو العلى – في مسار مضاد للمغناطيس – من الأسفل إلى الملإ الأعلى؛ فيفوز قارؤها بنعمتين: القراءة الممتعة، وانشراح القلب و الروح.

كنت قد طالعت النسخة القديمة لـ«منن الباقي القديم»؛ فغمرني غيضا من فيض، ثم جذبني جذبة قوية ، فبقيت أمدا طويلا أراجع النص، و في كل مرة؛ يتجدد ؛ كأني أقرؤه لأول مرة ... إلى أن اطلعت على طبعة أخرى لـ«منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم»؛ حققها الدكتور «محمد شقرون»، فأدركت أن هذا الجهد العملاق أصبح يأخذ مكانته اللائقة به في المكتبة الإسلامية العالمية، و كنت أطمع أن أرى أكثر من ذلك الجهد، وتلك العناية لهذا البحر المترامي الأمواج؛ فإذا بي أقف فجأة على رسالة «الحاج انجاي»؛ وقد حقق حلما قديما، اطلعت بها على تحفة ذات قامة دُونَهَا رؤوس القمم الشاهقة؛ تحت عنوان : «الشيخ محمد البشير و منهجه في تأليف كتابه: منن الباقي القديم».

بَيْنَ الْمَنْهَجِيَّةِ وَالرصَانَةِ:

لقد شمر الدكتور عن ساعد الجد؛ فقلب الصفحات القديمة المعدومة في المكتبات، والطازجة التي لا زالت أمام العتبات؛ ليجد لكل معلومة مكانها، ولكل استنتاج محله؛ مع سرد المعلومات الخفية والجلية؛ فسار ينسج الدرر بأسلوب سهل ممتنع، مع الإحالة إلى المصادر، حسب الترتيب الموضوعي.

أشار الباحث «الحاج انجاي الچركاني» بالبنان في دراسته إلى أول مصدر لكتاب «منن الباقي القديم؛ وهو: «قوت القلوب» للإمام الزاهد العارف «محمد بن علي عطية الحارثي» المشهور بـ«أبي الطالب المكي»؛ فوقف الباحث

على تراث وحياة «أبي الطالب»، فأسهب أيما إسهاب، في «قوت القلوب»، والذي في أحشائه الدر كامن.

ثم ثنى الباحث بـ«الرسالة القشيرية» للإمام العارف بالله «عبد الكريم هوزان بن طلحة بن محمد أبي القاسم القشيري»؛ فرحل الدكتور معه في حله وترحاله؛ من وإلى بلاد خراسان؛ حيث قدمت للقشيري شهادات قيمة؛ ممن هم أهل للشهادة.

ثم شد الباحث رحاله نحو «إحياء علوم الدين»؛ باعتباره المصدر الثالث عند صاحب «منن الباقي القديم»؛ مع الحجة الذي يستنير به الواقف على المحجة؛ إنه حجة الإسلام أبوحامد «محمد بن محمد بن محمد أحمد الطوسي الشافعي الغزالي»، فتغزل الدكتور بعلومه وفنونه المتدفقة.

ثم ينطلق الباحث لسرد المصادر الثانوية لـ«منن الباقي القديم»؛ فبدأ بالمصدر الثانوي الأول: «قواعد التصوف» للشيخ أبي العباس «أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الشهاب البرنسي أو البرنوسي المغربي الفاسي المالكي» المعروف بـ«زروق».

ثم انتقل إلى المصدر الثانوي الثاني: «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للإمام العلامة المسند المحدث «أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن أحمد» المعروف بـ«القسطلاني».

ثم إلى المصدر الثانوي الثالث لـ«منن الباقي القديم في سيرة الشيخ الخديم»؛ وهو «جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني»: للعالم العلامة «سيدي علي حرازم بن العربي برادة الفاسي».

ثم المصدر الثانوي الرابع: «الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية و الملكية» لـمحيي الدين «محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي الأندلسي المالكي»، المعروف بـ«محيي الدين بن العربي» الملقب بـ«الشيخ الأكبر» في عصره .

ثم بعده المصدر الثانوي الخامس: «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن» للإمام العارف بالله «أحمد بن عبد الكريم» المشهور بـ«ابن عطاء الله» الجذامي نسبا، المالكي مذهبا، الإسكندري دارا، القاهري مزارا.

ثم ينتقل الباحث إلى المصدر الثانوي السادس للمنن: «لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية» للشيخ «عبد الوهاب الشعراني».

ليصل إلى المصدر الثانوي السابع للمنن: «تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك» لجلال الدين «عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر السيوطي الشافعي».

ثم يذكر الباحث المصدر الثانوي الثامن: «عوارف المعارف في بيان طريقة القوم»: للشيخ شهاب الدين «عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد التميمي البكري الصوفي الشافعي السهروردي».

لينتهي الباحث بالمصدر الثانوي التاسع: «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت، وبيان شناعتها وقبحها»: للعالم «محمد بن محمد بن أبي عبد الله العبدري» المعروف بـ«ابن الحاج المالكي المغربي الفاسي».

لقد أرسل الحاج انجاي الچركاني براحه القلم؛ مطنبا في محل البيان؛ فهذه الساحة المكتظة بالنحل والمذاهب؛ كانت تحتاج إلى متمكن ضليع، وإلى متحد يصدع بأن (سواد الجسم لا يعني سفاهة الفتى)؛ فكانت جولته الواسعة الخطى، أوصلته إلى الإحاطة بما لا يدركه، إلا من ارتوى من هذا الفن، وهذه العلوم الزكية التي تتيه النفوس بين مراتبها، و تنزلق النوق على مدارجها.

فقد أفلح من زكاها، وخاب من دساها.

وبهذا الأسلوب العلمي شق الباحث «الحاج انجاي» طريقا جديدا، وابتدع منهجية أصيلة، في معالجة مخلفات السلف السنغالي العلمية العتيقة، والتي قد يتفق أو يختلف معها الفرد؛ لكنه لن يشك في علميتها.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي
التِّجَانِيَّةُ فِي الأَدَبِ السِّنِغَالِيِّ الْعَرَبِيِّ: نَظْرَةٌ فِي نَظَرَاتٍ

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

التِّجَانِيَّةُ فِي الأَدَبِ السِّنِغَالِيِّ الْعَرَبِيِّ: نَظْرَةٌ فِي نَظَرَاتٍ

عثمان جاه، «التِّجَانِيَّةُ فِي الْأَدَبِ السِّنِغَالِيِّ الْعَرَبِيِّ»، ط:1، دارآرْمَتَانْ–السنغال [Harmattan Sénégal]، دكار، 2017م، 612 ص.

تَوْطِئَةٌ:

وقفت على عتبة أطروحة الدكتور عثمان جاه: التجانية في الأدب السنغالي العربي، فكانت هي الأخرى إنجازا، على خطى ما قام به الدكتور عامر صمب في أطروحته بعنوان: الأدب العربي السنغالي: "الهدية السنغالية من المرجان في العقود الأدبية للعربان" والدكتور عثمان جاه يتميز عن سابقه، في كونه من نتاج الكتاتيب القرآنية والمحاضر العلمية، حيث انتهى به المطاف إلى جامعة عربية إسلامية عتيقة، أما الدكتور عامر صمب فكان ابن مدرسة غربية ذات نزعة استشراقية.

ويجتمع عثمان جاه مع الحاج انجاي الجركاني في كونهما من نتاج الكتاتيب والمحاضر والجامعات الإسلامية العتيقة، وفي العودة إلى المنبع، والموضوعية في البحث، والابتعاد عن التعصب العقائدي، الذي يتحول فيه الباحث إلى خصم وحكم.

فسجلت ملاحظاتي حول دراسة الدكتور عثمان جاه في لمسات عابرة، كما يلي:

لَمَسَاتٌ وَتَحَالِيلٌ:

طالما بحثت عن مكتوب في أدغال غابة تتناثرت فيها الكتب القيمة، والبحوث المختلفة، من أدباء وشعراء ودارسين جامعيين، حاول كل أن يدلي بدلوه حتى تشابكت الحبال واختلط الحابل بالنابل.

ثم جاء الدكتور عثمان جاه، لينسج حبل الوصال بين ذلك الماضي العتيق والحاضر الثاقب، بقلمه: الهدام – البناء.

وعلى سطح مرآة هذا الإنتاج يرى القارئ أن القاسم المشترك بين الأدباء الذين تناولهم البحث من مشايخ ومثقفين، قديما وحديثا هو التقوقعية: فكل يدندن في متكئه، ويتغنى بليلاه، ثم تأتي أجيال الأدباء لتختلف باختلاف المعطيات الزمانية والمكانية: بين الأصالة والحداثة.

ثراء عند الرعيل الأول، يأخذ طابع العصر الجاهلي في أغراضه وألفاظه، و في معانيه و مبانيه، وموضوعاته وقصائده و تركيباتها ؛ فيتصور القارئ أنه في أرض غير أرضه ، و في عهد غير الذي هو فيه، بل أمام واقع مغاير لواقعه: بأسماء المغتزل بهم ، و ميدان مجرى الأحداث ، و الصور المتداولة.

ثم يأتي جيل آخر ليقفذ نحو أجواء جديدة: عربية حديثة أو غربية ما كانت معهودة؛ فيخرج الأديب من المألوف إلى الطارئ، مما يسميه باحثنا عثمان جاه: انفتاحا و تطورا وحداثة، فَيَنْغَمِرَ فيه منبهرا؛ إلا أن اعتقادي، أنه عند عودته إلى صميم بحثه، قد يدرك غياب روح الإبداع، و انعدام المبادرة؛ عند الجيل الصاعد الذي فتنه، فلقد أضاف هذا الجيل من الأدباء ، إلى التقوقعية و اللف و الدوران حول الذات، المحاكاةَ للغير، محاولا هضم ما لم يمضغه من الثقافات الوافدة.

فالمدارس الغربية غريبة الأطوار، وكثيرة التقلب، يحسبها الظمآن ماء وهي سراب.

ثم إن الأجواء العربية الحديثة هي الأخرى، تشهد تقلبات بين الأصالة والحداثة، أمام انحطاط قد يخيل إلى المرء أنه نهضة، وفصول يعتقد العامة فيها الخريف ربيعا، فيستبدل الفرد فيها العصرنة والحداثة، بالقيم؛ فيشتري الذي هو أدنى بالذي هو خير.

بيد أن ما كان عليه الرعيل الأول من الأدباء والمشايخ يعد نوعا من المحافظة، مما أدى إلى الدخول من أبواب متفرقة: برموز وإيماءات شتى.

فوقف التاريخ والأدب عند لحظة الانتظار حتى ينجلي الغبار ليعرف من ركب حمارا أو امتطى حصانا.

فصراع الحضارات في طور العولمة يقف عند مفترق الطرق: بين المادة والروح، ليتبين أي منهما اللبنة المتممة لبناء صرح الحضارة الإنسانية.

هنا يكمن بعد وعمق هذا الأدب الصوفي: في طلاسيمه ورموزه، فهو آية ليل لا توازى بآية النهار، فكل في فلك يسبحون: إن ناشئة الليل هي أشد وطئا و أقوم قيلا.

آفَاقٌ لِمُسْتَقْبَلٍ مُنِيرٍ:

إن كتاب التجانية في الأدب السنغالي العربي، لبنة لصرح عظيم، تنبئ بآفاق واسعة، و أبواب رحبة ، تم الطرق إليها ؛ حيث كانت الدراسات السابقة في هذا المجال أقرب إلى تقارير خلفها غزو متعدد المحاور، يسعى إلى ديمومة الاستضعاف مقابل الاستعلاء ، لمستكبر يريد أن يهيمن على الآخر: ثقافيا ، وأدبيا ، ليصل إلى الاقتصاد و السياسة ؛ بعد استئصال الدعائم التي عليها تقوم هذه الشعوب، لتتم السيطرة عليها بعد محوها؛ فالنفي قبل الإثبات.

لكن المقاومة سنة الحياة: فر وكر وإقدام وإحجام.

فبالجملة إن هذه الدراسة وأمثالها، للطرق الصوفية التي تتعمق في الأبعاد الأدبية والفكرية، تأتي إعلانا لبداية صحوة بعد سبات، وإيذانا لفجر وراءه قسم، أن لا محالة بأن الليل سار، من خلال تحاليل علمية ودراسات نزيهة؛ فهذا الدين كما قيل قديما: لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله.

اَلْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

تَقْدِيسُ الْأَشْخَاصِ
فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ تَحْتَ الْمِجْهَرِ

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ
تَقْدِيسُ الْأَشْخَاصِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ تَحْتَ الْمِجْهَرِ

محمد أحمد لُوح، «تَقْدِيسُ الْأَشْخَاصِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ: عَرْضٌ وَتَحْلِيلٌ عَلَى ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ»، المجلد الأول: 572 ص، المجلد الثاني: 413 ص، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، دار القلم للتوزيع، ودار ابن عفان، القاهرة، 1422 هـ/2002م.

تَوْطِئَةٌ:

أصل في هذه العجالة إلى رسالة تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي للدكتور محمد أحمد لوح، وقوفا على الرأي والرأي الآخر، بمعزل عن المواقف المنحازة، وتعميم القناعات الشخصية، والحكم المسبق، أو الهجوم الجارف، مما يتولد من العاطفة، والمواجهة بين معسكرين.

كان العلم الناصع والفكر الخالص والأسلوب الأدبي السلس آليات العلماء في العصور الذهبية، فبرغم تباين آرائهم وأفكارهم، كانت المناظرات العلمية تلطف الأجواء وتنشط حيوية الدين والمعرفة.

فالنقيضان لا يجتمعان ولا ينعدمان معا، ثم إن آية النهار جاءت مبصرة، فإذا بآية الليل أشد وطأ وأقوم قيلا، فحين يتم الحسم بينهما مع اعتبار الطرف الآخر، عندئذ يتم الترجيح بين المتناقضات، فالطبائع الأربعة: الماء والنار

والريح والرمال، هي عناصر تفاعل حركة الحياة، مع أنها من حيث طبائعها لا مساس بينها، فكيف بفروع علم واحد، جامع مانع، يوجد فيها حاجز بين أبناء أمة واحدة، يؤمنون برب واحد.

لا شك في أن ذلك نتيجة ضيق الأفق، وإفرازات الانغلاق على الذات، إلا أن مواجهة الحجة بالحجة، والبناء على الموضوعية في البحث، والتحري لمعرفة الصواب، بآلية نزيهة، مع الأمانة العلمية والابتعاد عن الافتراء، أو تحميل الغير ما لم يحتمله مقاله أو سلوكه، وغير ذلك من متطلبات البحث العلمي، لا يولد إلا ثراء ومغنما، وازدهارا حضاريا وثقافيا، للفرد والجماعة والأمة بأسرها.

في هذه السطور، وبهذه العجالة، أحاول جمع شتات أبناء أمة واحدة، من أجل كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ولقد سبق لي أن سعيت لهذه الهموم بقدمي الاثنتين، وعبرت عنها بملء فمي وصميم فؤادي، وأنفقت فيها بملء راحي، فجمعت أكثر من مرة، أطياف وألوان المجتمع من أبناء الثقافة العربية والإسلامية.

واليوم أرسل القلم على سجيته، لعله يحقق ما عجزت عنه اللقاءات، والخطب المرتجلة، والمساعي الواسعة، فتأتي الكتابة لتقر ما دون، وتعيد إلى الجادة ما نشر.

كِتَابُ التَّقْدِيسِ بَيْنَ مُؤَيِّدِينَ وَمُنَاوِئِينَ:

كتب الدكتور محمد أحمد لو، رسالته لنيل درجة الماجستير، تحت عنوان: تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة، في جزأين، فأثارت تهويلا كبيرا، وردود أفعال هائجة، و انفعالا واسعا بين فريقين: من مؤيد ومهاجم، فكثر الضجيج.

بين هذا وذاك، أحاول قدر الاستطاعة، الابتعاد عن التراشق، فشجرتي مثمرة يانعة، إن رميتها حجرا أعطتك ثمرة، فمن هذا المنطلق أتناول المحاور التالية:

المحور الأول: أطروحة تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي مبادرة علمية وجيهة.

المحور الثاني: حصر التقديس في الفكر الصوفي بالسنغال في شخصيتين يتجافى عن الموضوعية

المحور الثالث: التجانية في كتاب التقديس شنشنة قديمة

المحور الربع: الشيخ عمر الفوتي: صاحب الرماح، بين الرماح.

المحور الخامس: الشيخ إبراهيم نياس: كاشف الإلباس عن فرية الحلول ووحدة والوجود.

المحور السادس: إخراج كل من الشيخ أحمد بمب والحاج مالك سي وإمام الله المهدي من دائرة الفكر، زلة في المنهجية.

المحور السابع: بعد تقديس الأشخاص في الغربة فهل من أوبة.

۞۞۞

الْمِحْوَرُ الْأَوَّلُ: أُطْرُوحَةُ تَقْدِيسِ الْأَشْخَاصِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ: مُبَادَرَةٌ عِلْمِيَّةٌ وَجِيهَةٌ:

إن الفكر الصوفي رغم قدمه وأسبقيته للإسلام والجدلية التي أثارها بين أنصار ومناوئين، ورغم كثرة ما كتب فيه، عبر العصور في شتى المعارف والفنون، يبقى ميدانا للدارسين ويظل موضوع رسالات جامعية، في مجالات الفكر والممارسات التي تجذب فضول المثقفين، من أدباء وشعراء وسياسيين واقتصاديين ... فالفكر الصوفي يقرع أبواب كل مجالات الحياة، سواء على المستوى النظري أم التطبيقي.

فالصوفية مادة دسمة تطرح تساؤلات متباينة في كل عصر ولدى كل قوم وفي كل مجال، مما يجعل التطرق إليها تقييما ونقدا موضع اهتمام الباحثين، ولقد تناولها المستشرقون بالدراسة وبلغات مختلفة، فتارة مع رجالاته،

وكتاباتهم، وأخرى مع الخوارق التي تنسب إليهم، كما تناوله الكتاب المسلمون تقييما وانتقادا.

فلكل زمان رجالاته ومستجداته وأساليبه، الحديثة منها والقديمة، فيأتي دور الجامعات الإسلامية في الفحص والتنقيب، لينتظر من الجيل الصاعد أن يقدم للعالم عصارة هذا العطاء المعرفي.

من هذا المنطلق فإن أطروحة تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، جاءت في وقتها، لما يراود الجمهور من تساؤلات حول قضية تقديس الأشخاص، وكان من الأجدر أن يأتي الطرح بصيغة التساؤل، عما إذا كان تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي واقعا أم خيالا؟ لا أن يأتي بصيغة الإثبات المسبق كما نجده عند الباحث، لأن مجال الفكر والبحث يختلف عن الكتابة حول موقف أو فكرة شخصية، ثمت فرق بين ما هو عام وما هو خاص في هذا المجال، ففي العام يبقى السؤال مطروحا ليحتمل أكثر من جواب، فالجزم فيه مدار تحفظ، بينما الفكرة التي هي خاصة بالفرد أو الفئة، تظل نظرية وقناعة خاصة في إطار محدود، فالخلط بين الفكر الصوفي، وفكرة عن الصوفية زلة، تبعد عن متطلبات البحث العلمي.

ثم يأتي الشق الثاني من عنوان الكتاب: "على ضوء الكتاب والسنة" حيث تم الخلط بين الفكر والوعظ، مما حول البحث إلى دروس في مسجد،

وأستاذية في محضرة، لينتهي إلى مواجهة بين واعظ وهابي مطوع، في وجه مشيخة صوفية معتكفة، مما يبعد الدراسة عن الموضوعية، ليدخل الباحث في ميدان المشاداة والمساجلة.

فالكتاب والسنة وحي من الله سواء العاكف فيه والبادي، فليس حكرا لأشخاص أو فئة ما، بينما الفكر مجال حر يتسنى للفرد فيه أن يقيم وأن ينتقد بكل حرية بناء على قواعد المنطق والأصول، فيدافع كل عن موقفه واستنتاجاته، وله أن يواجه الآخر بالحجة فيكون صراعا بين طرفين متناقضين، ليتم الترجيح بين الأطراف المتباينة- الأمر الذي يتطلب لا شك، الاستقلالية والشجاعة الأدبية- بمعزل عن اللجوء خلف ذريعة الكتاب والسنة، كالنعامة التي تظن أنها تخفتي بمجرد إخفاء رأسها في الرمال.

ثم يأتي الدكتور محمد أحمد لو ليطرح سؤالا أساسيا:

(لماذا يكتب في مثل هذه الموضوعات في هذا الوقت بالذات؟)

ويرد قائلا:

«إن الصحوة الإسلامية والنهضة السنية التي يشهدها العالم الإسلامي وغيره يحتاج بناؤها وترشيدها إلى أرضية صلبة تقام عليها العقيدة والمنهج خاصة في هذا الوقت الذي نعيش بدايات هذه الصحوة وتلك النهضة» [1].

1. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي...»، مج: 1، ص: 2.

ومن هنا تحول الباحث إلى منظر إيديولوجي يقدم ميثاقا لاحتواء الصحوة الإسلامية التي شهدها العالم في الأزمنة الأخيرة، و ذلك ما يسميه بالنهضة السنية ويقصد بها فئته السلفية، فكأنما الصحوة الإسلامية التي شهدها العالم منحصرة في قوم دون قوم، أو فئة دون أخرى، فلقد حجر واسعا، وحول أطروحة جامعية إلى دعاية ومشروع سياسي، لبناء أرضية جديدة يتربع فيها.

ثم يضيف الدكتور في مقدمته:

«وهذه الأرضية تستند ولا بد إلى ركيزتين أساسيتين لا نهضة ولا صحوة بمعزل عنها.

الركيزة الأولى: تصفية كتب التراث الإسلامي مما علق بها من الدخيل سواء في ذلك ما دخل كتب التفسير والتاريخ والسير والمغازي وغيرها من الإسرائيليات والأخبار الواهية والموضوعة، أو دخل كتب الفقه من الآراء الشاذة والمرجوحة أو كتب السلوك والتزكية من الخرافات والأباطيل، والمناهج الفاسدة، والبدع المحدثة» [2].

يتضح من الركيزة الأولى النزعة الأيديولوجية لدى المنظر في مشروعه السياسي، وهي عملية احتواء للعلوم الإسلامية المختلفة، وتهجينها لصالح فئته ومعركتها المتعددة المحاور والأصعدة، مما يجعل من البحث ميثاقا سياسيا ومشروعا عقائديا يبدأ بالهدم قبل البناء.

2. المصدر السابق، ص: 2.

وهذا ذاته ما فعلته الصين الشعبية عبر شخصية المنظر الشيوعي ماوتسي تونغ في ثورته الثقافية، حيث كان قد أعلن، ضرورة إتلاف الكتب والمؤلفات، التي رأى أنها مخالفة لمنظاره الثقافي.

وفي صميم عالمنا الإسلامي نجد ممارسات مماثلة، فالفرق المتباينة والتي لها نزعات سياسية، تحرض أنصارها من المتحمسين وحلفاءها من السلاطين، على حرق مؤلفات الآخرين أو إتلافها، بنفس الذريعة التي رفعها الدكتور.

وبلغت هذه الحالة بالإمام البخاري رحمة الله عليه، إلى حد تمنى الموت حين قال: (اللهُمَّ؛ إنه قد ضاقت عليَّ الأرض بِمَا رَحُبَتْ؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ) ؛ لخلافات حول قضية خلق القرآن، وكان طريدا من بلاده، كما هُجرت حلقاته التعليمية، وسخر مشاغبون ضده، حيث قاموا بتوجيه أسئلة استفزازية إليه، عما إذا كان اللفظ بالقرآن مخلوقا؟ فخرج الإمام البخاري من بخارى مسقط رأسه، لينبذ أينما حل، فينتهي به المطاف إلى قرية "خَرْتَنْك" القريبة من سمرقند.

وما تعرض له الإمام البخاري، كان من طرف علماء السلفية السنية الحنفية، حيث كانوا يطاردونه في حله وترحاله.

ومن هذا القبيل ما تعرض له، كتاب إحياء علوم الدين للعلامة أبي حامد الغزالي من الحرق بسبب ما ذهب إليه في مجال الفكر والتدبر حين قال: (لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَبْدَع مِمَّا كَانَ». .

ويضيف الباحث الدكتور:

«الركيزة الثانية: تربية جيل الصحوة على تحصيل العلم الشرعي المؤصل المبني على التراث المصفى والسنة المطهرة» [3].

بهذا تطرق البحث إلى الجانب الاجتماعي لتجنيد فئته لمواجهة من يختلف معهم من خلال ما يسميه تربية جيل الصحوة.

ذات ما قامت به الثورات الانقلابية في العالم، وعلى مقدمتها الدول الشيوعية والسلطوية في تجنيد الشرائح .

مثلما ما دأبت عليه بعض الفرق الإسلامية من تجنيد شرائحها للنيل من الآخرين أو الطعن فيهم.

ثم ينتهي الباحث ليقول:

«أما كتابنا هذا فيأتي في إطار الركيزة الأولى، فيتناول الفكر الصوفي الدخيل على الإسلام بالعرض والتحليل والرد عليه عن طريق بيان معارضته لنصوص القرآن والسنة» [4].

---

3. المصدر السابق، ص: 2.

4. المصدر السابق، مج: 1، ص: 3.

من هنا يتبين للقارئ أن الكاتب يقف على قدمي الخصم و الحكم، فاعتبر منذ الوهلة الأولى أن الفكر الصوفي دخيل على الإسلام، ثم إن الدكتور قام بالعرض و التحليل لنصوص القرآن و السنة، بناء على مفهوم فئته لمدلولات النصوص، و كان الأولى أن يضع فرضية موافقة أو معارضة الفكر الصوفي لنصوص القرآن والسنة- مع التجرد التام من قناعة مسبقة- ليتم تجميع المتناقضات قبل الترجيح أو التخطئة في نهاية المطاف، فالمقدمات يجب أن تسبق النتائج- وعكس ذلك هو ما سار عليه البحث- ، بل إنه منذ تطرقه إلى الموضوع كان قد انتهى إلى نتيجة حتمية، وهي كون الفكر الصوفي في تناقض مع الإسلام، ليبحث عن مبررات في القرآن و السنة، لتأكيد ما قد تأكد عنده منذ البداية.

ثم إن الدكتور اختار من يخاطبه الكتاب ومن لا يخاطبه، مع أن علمية الكتابة تقتضي سواسية لا تحد بحدود، على وتيرة الخطاب القرآني الذي يستوي فيه الناس على اختلاف معتقداتهم وأطيافهم وألوانهم: يأيها الناس...

أما كتاب تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، فيعلن فيه الدكتور منذ الوهلة الأولى أنْ:

«المخاطبون في هذا الكتاب أساسا صنفان من الناس: الصنف الأول: مسلم غير متصوف يحرص على أن يقتبس عقيدته و عبادته و سلوكه

من الكتاب و السنة دون تقيد بها جاء في طريقة من الطرق سواء كان نشاطه في إطار الحركة الإسلامية الحديثة أم لا».

ثم ينتهي مع الصنف الأول إلى أن:

«أي محاولة للتوفيق والخلط بين التراث السني و التراث البدعي عن طريق التقريب بين الحركة السنية و الطوائف البدعية فسوف لن تجدي، وسيكون من نتائجها ذوبان الحركة الناشئة في خلايا الطوائف البدعية فيتكون من ذلك مزيجٌ ضعيفٌ عقيدةً و اعتصاما يؤخر و لا يقدم و لا يرفع الأمة إلى مقام الاستحقاق لنصرة الله وتمكينه»".[5]

هنا يشرع الدكتور المنظر في تعبئة أنصاره على طريقة شعب الله المختار، فيضع ضوابط، لخلاياه الناشئة، زرعا لفصائل فئة التمايز ودعوة إلى الفوقانية، مع الحرص والسهر على أن لا تختلط مجموعته بالآخرين، مما يعد نوعا من التفرقة المنبوذة، معتبرا أن أية محاولة للتسامح أو التعامل مع الغير لن يجدي، وإنما يؤدي إلى الذوبان.

نجد نفس هذه النزعة الفاشية عند: «الصهيونية»، و«هتلر»، و«إستالين»، و«موسيليني» الإيطالي في فكرة انطوائية تسلطية؛ مما يوحي إلى أنها دعوة انتقائية، من خلال مجموعة تطبق فكر التمايز.

ثم يواصل الدكتور إلى:

---

5. المصدر السابق، مج: 1، ص: 3.

«الصنف الثاني: مسلم صوفي يحب أن يكون نشاطه ضمن إطار التصوف، إلا أنه يشعر أن هناك خللا وانحرافا في الفكر الصوفي ظهرت انعكاساتها في أخطاء عقدية وتعبدية وسلوكية، فهذا الصنف يريد أن يعيش صوفيا لسبب من الأسباب ويعترف بوجود هذه الأخطاء ويطمع في تصحيحها»[6].

يبدو للمتتبع لهذا التصنيف أنه صيد في ماء عكر، لتوسعة رقعة شريحته على وتيرة مفهوم التقية عند الشيعة، مما يمكن وصفه تشيعا سلفيا، حيث إن الشيعة يعتبرون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ملكا خاصا بهم، وأن التقية هي عذر من لا يستطيع أن يجهر بتشيعه لسبب ما، فجاءت الأطروحة لتقتبس للسلفية من الشيعة تشيعها وتقيتها: ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾. [سورة آل عمران: 30].

إن الدكتور بعث برسالة قوية إلى المعسكر الآخر، فجاءت ردود الأفعال بنفس السرعة والقوة، فاختلط الحابل بالنابل، فثار الغبار ودوت جعجعة بلا طحين؛ فتحول الميدان بعد الضرب بالدفوف والمساجلات، إلى معركة ضارية، لم تترك رطبا ولا يابسا، على وجهها، حيث تحولت إلى حرب داحس- أو "داعش"- وغبراء وإلى بسوس لتمتد عبر الأجيال، فصدر كتاب للرد على تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي تحت عنوان: «كِتَابُ

---

6. المصدر السابق، مج: 1، ص: 6.

التَّقْدِيسِ بَيْنَ التَّلْبِيسِ وَالتَّدْلِيسِ وَالتَّدْنِيسِ: دِرَاسَةٌ نَقْدِيَّةٌ أَصْلِيَّةٌ تُبَيِّنُ مَا فِي (تَقْدِيسِ الْأَشْخَاصِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ)مِنْ تَرَارِيه، وَأَرَاجِيف، وَتَدْحَضُ مَا فِيهِ مِنْ خُزَعْبَلَاتٍ، وَسَفَاسِف بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْعَقْلِ وَالْوَاقِعِ)»[7] للكاتب «شِيخْ تِجَانْ غَايْ».

وكان في رده شديد اللهجة، يسترجع تشاحنات الماضي فخيمت العاطفة، ونشطت النعرات الفئوية، والنخوة البدائية: بين السلفية والطرقية، فأضحى التقاذف والتشاجر، واسع النطاق، فانحط مستوى الحوار إلى الحضيض.

ففي مقدمته للطبعة الثانية يكتب الدكتور محمد أحمد لوح:

«ومن فضل الله علينا أن لقي هذا الكتاب قبولا وترحيبا وثناء من أهل السنة والجماعة في أقطار كثيرة من عالمنا الإسلامي الكبير، كما ثارت به ثائرة المناوئين للدعوة السلفية وارتفع نباح المغردين الذين عجزوا عن الرد على الكتاب ردا علميا فلجأوا إلى السب والشتم والتلفيق والكيد على طريقة المبتدعة في كل زمان ومكان، فحمدت

---

7. شيخ تجان غاي، «كتاب التقديس بين التلبيس والتدليس والتدنيس: دراسة نقدية أصلية تبين ما في (تقديس الأشخاص للفكر الصوفي من تراريه، وأراجيف، وتدحض ما فيه من خزعبلات، وسفاسف بالكتاب والسنة، والعقل والواقع)»، الناشر: المؤلف، لوغا، السنغال.

الله على ذلك كله، لأن ثناء أهل السنة تشجيع وترقية، وتجريح أهل البدعة تعديل وتزكية» [8].

وكان شيخ تجان غي صاحب الرد المشار إليه بالتلميح قد ذكر في مقدمته:

«فأخذت قلمي لأبدد ضباب الأوهام وأقشع غيوم الأكاذيب التي قد تتراقص أمام أعين قراء هذا الكتاب الغريب...»

إلى أن قال:

«وأكاذيب الكتاب متوزعة في جميع مباحثه الكثيرة وتناقضاته منتشرة في كل الأبواب والفصول» [9].

هنا يتبادر إلى ذهن القارئ أن هذا النوع من تقاذف الكلمات وتبادل النعوت بين أرباب الأقلام، وليد الأسلوب الدعائي الساعي إلى وراثة الرعيل الإسلامي الأول دون غيرهم.

ويكاد أن يكون ذلك الاعتقاد ماثلا لدى كل الفئات والجماعات الإسلامية، فنجده عند بعض السلفية في جعلها الكتاب والسنة الطاهرة وتطبيقات الصحابة رضوان الله عليهم حكرا لها.

---

8. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي...»، مج: 1، ص: 1.

9. شيخ تجان غاي، كتاب التقديس...»، ص: 3.

وهذه الممارسة نجدها عند بعض الشيعة، في ادعائهم أنهم وحدهم حملة لواء أهل البيت النبوي.

ونجد نفس الخطاب عند زمرة من المتصوفة بدعواهم أنهم منفردون بالمدد الرباني والفيض الصمداني، ودون غيرهم الباب والوسيلة إلى المولى.

فيرى المراقب تراشقا بين أنصار هذه الفئات الثلاثة، والخطر أن ينخرط أصحاب الفكر والثقافة والباحثون والعلماء في هذه المعركة، لتغذية الجراثيم الفتاكة للجسد الواحد، فيتداعى لها سائر الجسد بالحمى، وينهار البنيان المرصوص، فتذهب ريحهم.

وقد سمعت ذات مرة عبارة طريفة في هذ القالب، وهي أننا أمام: "شيعة تنطح وسلفية تمسح وصوفية تشطح[10]" ويمكن القول بعبارة أخرى: شيعة تنوح وتحن إلى الماضي الأليم، وسلفية تنفر وتبرر لحماية السلطان، وصوفية تدندن وتدوي كدوي النحل لتفتخر بالصفاء.

ثم إن هذه الجماعات من حيث الممارسة صنفان: شيعة وصوفية قبورية، وسلفية قصورية. فيتضح منذ البداية أنها مواجهة بين معسكرين يشمران للخوض في غمار حرب مقدسة بين الإيمان والنفاق، والسنة والبدعة والتوحيد والشرك.

---

[10] مقولة سمعتها من الأستاذ بشرى أحمد جيي الكولخي

ثم يبين الدكتور الدوافع التي أدت به إلى الكتابة حول الموضوع، فيحصر بمقتضاها الصحوة الإسلامية ونهضة أمتها التي يشهدها العالم على حد قراءته ومفهوم فئته، فهي ركائز تعيد الأمة الإسلامية، إلى بؤرة ضيقة، حيث الخارج عنها مبتدع.

وليس غريبا ولا عيبا أن يكون للفرد معتقدات أو قناعة معينة، كما هي الحال بين الأطياف والفئات المختلفة ، ولكن الذي يزعج الفكر السليم هو تعميم القناعة الفئوية، مما يؤدي إلى فرض أحادية الرأي و عدم اعتبار الغير وما لديه من مواقف و حجج، ففي الخطاب القرآني في الحوار مع الغير أسلوب جدلي يضع على كفتي الميزان الرأي و الرأي الآخر: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾. [سورة البقرة: 139، 140، 141].

لعل المشكلة تكمن في أن الدكتور ارتدى بردة الأستاذية، مع أن الحوار مع الغير يختلف عن الحديث الموجه إلى أنصار نفس الاتجاه.

والقارئ الممعن لا يكاد يجد في هذا النوع من الخطاب أكثر من التقوقعية والانغلاق على الذات.

وتنطبق نفس الملاحظات، على من حاول الرد واقفا عند حد معاملة المثل بالمثل، كمن يقول لخصمه أنا أشد منك سفاهة، فيصبح منبر الحوار هابطا.

فكان المنتظر في هذا الطرح، إيجاد جو من الإنصاف، في دراسات بدأت تلوح في الأفق من النخبة المثقفة، لتكون بعيدة عن تأييد فئة دون أخرى بمجرد قواسم مشتركة.

الْمِحْوَرُ الثَّانِي: حَصْرُ التَّقْدِيسِ فِي الْفِكْرِ الصُّوفِيِّ بِالسِّنِغَالِ فِي شَخْصَيْنِ يَتَجَافَى عَنِ الْـمَوْضُوعِيَّةِ

وبالإصرار على حصر رجالات الفكر الصوفي في اثنتين، وقع الدكتور في تعارض، في صميم بحثه، حيث أتى بمبررات واهية فكتب يقول:

« أما الشبهات التي أثيرت حول الكتاب فغالبه[11] أراجيف لا تستحق الرد والعرض على بساط البحث ، و لا تنطلي إلا على من لا يدري ما ذا في الكتاب، و من الذي كتب.

أما مثيروها فأناس مفلسون من أي رصيد في العلم و العمل؛ تغلي قلوبهم حقدا، و حسدا، و بغضا، و عداوة، و إن كان بعضهم يغري العامة و صغار الطلاب بادعاء الانتماء إلى (الأكابر) و الدفاع عنهم .

و لعل الأرجوفة الوحيدة التي يمكن أن تنطلي على بعض المستمعين

---

11. هكذا ورد في نص الكتاب؛ وربما الصواب: (غَالِبُهَا).

الذين لا يقرؤون، وعلى أنصاف القراء الذين يقرأون ولا يفهمون ، أو يفهمون؛ ولكن لهم أغراض في أنفسهم؛ قولهم : إن الباحث تناول – فيما تناول – الطريقة التجانية ولم يتناول غيرها من الطرق الشائعة في السنغال ، و ذهب بعضهم في ذلك مذاهب أبعد فيها النجعة، ونسب الباحث إلى ما يَبْرَأُ إلى الله منه، وحسبي أن أقول لمن فهم أو أفهم هذا الفهم فذهب هذا المذهب : على رسلك إن هذا البحث بحث فكري، و ليس بحثا ميدانيا، و بين البحثين بون شاسع عند العارفين بمناهج البحث.

فالأول يتناول الفكر المدون، والثاني يتناول وصف المظاهر، و يقتبس مادته من الشارع و المشاهدات. فالأول يستهدف ما يدون في بطون الكتب والمراجع، وإن لم يوجد من يعمل به. والثاني يستهدف التطبيق العلمي؛ و إن لم يبن على فكر مدون»[12].

يبدو أن الدكتور نهج منهج أتباع المدرسة الغربية الكلاسيكية القديمة، التي تقف عند حد ما في بطون الكتب؛ بعيدة عن الواقع، وتعرف هذه المدرسة بالعقلانية،Rationaliste ومقابلها المدرسة الواقعية الحديثة أو البراغمتيكPragmatiste ، أوEmpiriste والتي تبني بحوثها على التجارب الميدانية، بالمقابلة بين النصوص والواقع، فيعيش الباحث في أعماق الأحداث والوقائع ويحتك بمن يعنيه الأمر والمحيط الذي تجري فيه

12. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص...»، مج: 1، ص: 7.

الممارسة، فيجمع بين النظرية والتطبيق، وبين الحقيقة والشائعة، فيجمع العوامل والدوافع ليخرج بترجيح بين المكتوب والواقع، لتصبح أطروحة موثقة بعد التحقيق.

ولقد أخفق أصحاب المدرسة الكلاسيكية القديمة، وصاروا موضع الانتقاد والجرح والطعن بل اتهموا بالسطحية، وتزداد إخفاقاتها عندما تبحث في مجال خارج عن واقعها الثقافي والعقدي، حيث يتضح أنها تقيس الأمور بمقياس بيئتها وثقافتها أو حضارتها هي، فتحكم على الغير بمنظار ذاتي، وتخلص إلى استنتاجات بعيدة عن الواقع، وقد صرف كثير من المداد والقرطاس من قبل المستشرقين الإفرنج "الخواجة"، والكتاب المسلمين الناشطين في ذلك الميدان.

أما المدرسة الواقعية بالرغم مما تؤاخذ عليه من توجه، وشيطنة الغير، والحكم المسبق، والتلطيخ والتلفيق- وهي قواسم مشتركة، بين المستشرقين والدعاة إلى أحادية الرأي- إلا أن أطروحاتها أكثر نزاهة وأقرب إلى الإنصاف، فيبقى الجانب الدعائي محل انتقاد ورد على كل من ينتهجه.

ووقف المناوئ للدكتور الكاتب شيخ تجان غي في الوجه الآخر، جازما، أن ما ذهب إليه الدكتور هنا مجرد توجس، من رد فعل بيئته - الطريقة المريدية- التي لا تتهاون أمام المقلل من شأن مرجعيتها ويقول:

«و النقطة الأولى من قاعدته (الدكتور محمد أحمد لوح) كانت تقتضي أن لا يعتمد على ما لم يدون مثل مشاهداته هو لكنه قد فعل ذلك».

(ويورد الكاتب شيخ تجان غي مقولة الدكتور محمد أحمد لوح حيث يقول):

«لقد عاينا و عايشنا جماعة من الذين أشيع عنهم أن الخمر تنقلب حليبا في أفواههم فلما تأملناهم وجدناهم سكارى الذين لا يكادون يفيقون».

ويعقب شيخ تجان غي قائلا:

«هذا خرق وقح للقاعدة، فما هذا بمدون باعترافه، لكن السؤال الأهم هو: أين عاين الرجل، و عاش ذلك و من هم هؤلاء السكارى، أيخاف ذكرهم».

(ثم يضيف شيخ تجان غي نصا آخر للدكتور في الجزء الثاني من الكتاب حيث يقول):

«أما لو عدنا إلى الواقع المشاهد لوجدنا أن اهتمام " الصوفية " بقبور من يعتقدون فيهم أكبر من اهتمامهم بالحج الشرعي ، فكم من رحلات تنظم سنويا إلى القبور؛ تجهز لها الأموال الوافرة، وتستأجر

لأجلها قاطرات و طائرات، و يختلط فيها شيب و شبان و سيدات ، و لم يحجوا مع القدرة على الحج ؛ و ربما لم يفكروا فيه مستقبلا» [13].

(فيعلق شيخ تجان غي قائلا):

" هذا خرق ثان للقاعدة : إنه واقع غير مدون. ألم تر إلى هذا الجرؤ على الافتراء و التقول على الآخرين، كيف عرف هذا التليميذ المتمسلف والسني الذي (يفترض أن) لا يقول إلا الحق أن هؤلاء الشبان و السيدات يقدرون على الحج، كيف يستطيع إنسان عادي أن يرى ركاب قاطرات و طائرات فيعرف أنهم لم يحجوا مع القدرة عليه[14]"

وفعلا لم يحترم الدكتور التزامه الذي تعهد به من عدم الخروج عن ما في الكتب، لكون بحثه بحثا فكريا لا ينزل في الميدان أو الشوارع للكتابة، – حسب تعبيره– بل حكم على ما في ضمائر الآخرين، لما كتب عن (الخمر التي تتحول لبنا)، وعن: (الرحلات بالقطار، والطائرات لزيارة قبور من يعتقدون فيهم ويمتنعون عن أداء فريضة الحج مع القدرة عليها)؛ وغير ذلك مما كتبه الدكتور في بحثه من باب المشاهدة؛ وهو بهذا قد خرج من قواعد كلتي المدرستين العقلانية والواقعية؛ مما حول الدراسة إلى قناعة فئوية، ومصار جدل بين فئتين متباينتين أنصار يصفقون و مناوئون

---

13. شيخ تجان غاي، كتاب التقديس بين التلبيس والتدليس والتدنيس، ص: 28.

14 المصدر السابق: ص: 29

مستاؤون، فتحول منبر العلم والمعرفة، إلى ميدان مصارعة وملاكمة، الخاسر فيه الإنصاف والموضوعية...

الْمِحْوَرُ الثَّالِثُ: التِّجَانِيَّةُ فِي كِتَابِ التَقْدِيسِ: شَنْشَنَةٌ قَدِيمَةٌ

شن «الخِضْرُ بن مايابى الجكني» في عشرينيات القرن العشرين هجمته الشرسة، و حقده الدفين، ومحاولته الخاسرة لِلَفْتِ الأنظار، و كسب الأعيان من الأمراء، و السلاطين الذين – لأسباب غير معلنة – يتحاملون على كل ما يرفع من شأن أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ فاغتنمها فرصة لجلب حطام الدنيا الفانية، فكان كتابه منذ العنوان «مُشْتَهَى الْخَارِفِ الْجَانِي فِي رَدِّ زَلَقَاتَ التِّجَانِيِّ الْجَانِي»... إلى آخر سطر منه قذفا، و قدحا، وذما، و نميمة، و شتما، لرجل صالح من أولياء الله المقربين؛ أحمد بن محمد التيجاني رضي الله تعالى عنه وأرضاه، الذي قضى نحبه بين الأخذ، و العطاء بكل سخاء، فجمع بين علم اليقين و حق اليقين، بعد أن حرر العلوم والفنون المختلفة: الرسومية منها و اللدنية، كما جمع بين العلم والعمل؛ و بين الخشية و الحركة؛ فلما امتلأ بحره المحيط الفياض بألوان وأطياف المعارف، أمرحوارييه ومريديه، أن سبحوا بكرة وعشيا، واستغفروا ربكم إنه كان غفارا، وامتثلوا أوامر ربكم فيما بدأ فيه بنفسه و ثنى بملائكة قدسه، فصلوا

وسلموا على صفوة خلقه، وهللوا لربكم، تدخلوا جنان باريكم ؛ فدخلوا أفواجا في دائرة الإيمان.

فكاد المنكرون يكونون عليه لبدا، فخرجت أقلام و ألسنة حداد ، و كان في المقدمة غول؛ كأنه رؤوس الشياطين؛ هكذا قام ابن مايابى.

فبدأ كتابه في القدس الشريف و ثنى في مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وثلث في البيت العتيق ليضفي على كتابه قداسة، وليقول مع قومه إن الله ثالث ثلاثة: الله الملك الشعب.

فكفروا من قالوا: (**رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**)، فخرجت الجيوش الطلع بالمرهفات القطع للرد على الإنكار وردع المنكر ببراهين من الكتاب والسنة لتفنيد أباطيل المنكرين الملصقة والمختلقة كأنها بيت العنكبوت.

فعادت ريمة إلى عَادتها القديمة، ليتبين أن ظاهرة الإنكار والتنكيل أُسْطُوَانَةٌ تردد نفس النغمات حقبة تلو أخرى، لتصبح مع الأيام حقيقة مفروضة، بصم الآذان وتغطية العيون وتضليل العقول، فلم يؤت فيها بجديد، كما كان يقول شيخ الإسلام الحاج إبراهيم نياس: " مضى الإنكار ومضى الجواب" ، وها هي الحالة تتكرر مع إصدار جامعي يعيد نفس

المسائل التي كانت تثير الجدل والإنكار قديما، دون العودة إلى ردودها المتوفرة في رفوف المكتبات. [15]

فالمادة الدسمة والأكلة الشهية لدى الوهابية هي التجانية، جوف الفرى، فطافوا حول الحمى، ليهزوا الهيكل التنظيمي الذي تنبني عليه الصوفية عامة وتؤسس عليه بنيانها، كما عليه الحال في كل كيان، ناهيك عن كيان يتسم بالعالمية، فكما تقوم الدولة على مؤسسات ومرافق، والجماعة على قيادات، والإدارة على أطر وسلم إداري، فكذلك بالنسبة للطرق الصوفية عموما، فيسرد الدكتور محفوظات سابقة حيث يقول:

«أن القوم أرادوا بتعريفهم للأولياء أن يجعلوهم خارج نطاق البشرية بحيث لا يخفى عليهم شيء في السماوات ولا في الأرض ولا يقف في وجوههم – بعد الفتح – حاجز الزمان والمكان، و أنهم لا يعجزهم شيء».

و يضيف:

«يقول الفوتي: و لما ثبت وظهر و اتضح مما تقدم أن شيخنا سيدي أحمد بن محمد التجاني هو خاتم الأولياء كما أن جده صلى الله عليه و سلم هو خاتم الأنبياء ثبت فضله على جميع الأولياء» [16]

---

15. نص كنت نشرته في مقدمة الطبعة الثالثة لـ«ـلجُيُوشِ الطلع بالمرهفات القطع إلى ابن مايابى أخي التنطع» للخليفة الحاج محمد انياس، والكتاب من منشورات والفجر، 2014م. (مع تصرف).
16. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص»، مج: 1، ص: 60، 61.

ثم يخرج الدكتور من جعبته ما يلي:

«هذا النص يفيد:

1. أن الشيخ الفوتي ذكر أولا ما تمسك به في كون شيخه خاتم الأولياء

.2. أنه شبه كونه خاتم الأولياء بكون محمد صلى الله عليه و آله و سلم خاتم الأنبياء، و معنى هذا أنه لا ولي بعده كما أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لا نبي بعده

.3. أنه توصل بهذا التقرير إلى أن شيخه أفضل الأولياء، لأن من شبه ختميته بختميته هو أفضل الأنبياء. إذا تقرر هذا كله علمنا أن قول التجانيين : إن الشيخ التجاني خاتم الأولياء لا يريدون به إلا ما عرفت من كونه لا ولي بعده» [17].

ويضيف:

«والقطب عند الصوفية نوعان، أحدهما: هو المتمكن في القطبية الصغرى أو الحسية و الآخر: هو المتمكن في القطبية الكبرى أو المعنوية، وهو المعبر عنه عندهم بباطن نبوة محمد أو الحقيقة المحمدية» [18].

---

17. المصدر السابق، مج: ص: 90

18. المصدر السابق، مج: ص: 107.

ويضيف:

«والغريب أن الذين يتمسكون بهذه الأخبار ويستدلون بها في إثبات الأبدال عامتهم من الأشاعرة الرافضة لأخبار الآحاد في المسائل العقدية، حتى و إن كانت تلك الأخبار من أصح الصحيح، وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على اضطراب منهج هؤلاء الناس في كل شيء»[19]

ويضيف:

«إن الأمور التي وضحها الله تعالى في القرآن الكريم و أمر نبيه بتبليغها إلى الأمة كونه صلى الله عليه و آله و سلم لا يعلم الغيب ذلك لأن كل آية صرحت باختصاص الله تعالى بعلم الغيب فإنها تضمنت في الوقت ذاته نفيه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و عن غيره من باب أولى» [20]

ويضيف:

«غير أن مؤسسي الفكر الصوفي رأوا أن طاعة الشيوخ واجبة و لا يجوز الاعتراض عليهم بأي شكل من أشكال الاعتراض حتى و لو كان هذا الشيخ الولي بعيدا عن الحق متلبسا بالباطل، أي أن الشيخ يطاع

---

19. المصدر السابق، مج: ص: 107.

20. المصدر السابق، مج: ص: 192

لذاته بصرف النظر عن الأوامر و النواهي الشرعية ، و هذه الرؤية مبنية على اعتقادهم بعصمة الولي» [21].

مَفَاهِيمُ يَجِبُ أَنْ تُصَححَ

إن مصطلح الأولياء والأوتاد والأسياد والأقطاب... تسميات لها دلالات لغوية واصطلاحية، فالولي لفظ يطلق على زعيم الأسرة وعلى رئيس المقاطعة والرجل الصالح، وعلى ولي العهد، فيدل على القرب من الشيء ، وتولي مسؤولية ما، حسب القرائن الصارفة، وقد تستخدم هذه المصطلحات، فتتولد منها مفاهيم خاصة لدى قوم أو فئة أو بيئة معينة، فتأتي كلمة الوتد، للدلالة على العمود وسط الخيمة، لتشير إلى من يستند إليه للاستفادة منه بطريقة أو أخرى، و نجد في طيات كل من هذه الكلمات معنى الرفعة والقوة، مثل ذلك يقال عن مصطلح الأسياد الدال على الأعيان، والأقطاب التي تعني المرجعية، فإذا قلنا قطب الدائرة نعني به مركزها وقطب القوم زعيمهم، مما لو عبرنا عنه بقصد الرئيس أو الملك أو الأمير وغيرها من الألقاب والأوصاف، لوجدناها تعني الزعامة، كما لو أطلقنا ها على لقب صاحب الجلالة أو ولي العهد لما خرجت من هذه المدلولات.

---

21. المصدر السابق، مج: ص: 225.

فتأتي هذه المصطلحات لتشكل هيكلا تنظيميا للصوفية والتي هي جماعة ربانية، تعيش أبعادا ومفاهيم، تعبر من خلالها عن مشاعر كامنة تغذيها بالذكر والترتيل.

أما لفظ الشيخ أو الوسيلة التي كثيرا ما تقوم الوهابية بطعنها، لا تخرج عن كون الموصوف بها يؤدي دورا تربويا وتعليميا وتنسيقيا.

كما يتطرق الدكتور على نفس الوتيرة إلى الطعن في بعض المعاني والمصطلحات الخفية، مما لا يخرج عن إطار ما، بين الشعور واللاشعور، والشكل والمضمون، الأمر الذي يدخل في مجال التدبر والفكر والتأمل والنفس وأغوارها، من باب: واتقوا الله ويعلمكم الله...

ويسترسل الدكتور كي يجد شبهات فيما كتبه صاحب الرماح الشيخ عمر الفوتي، فيقف عند كلمة خاتم الأولياء، هل تعني الأفضلية أم ختم الولاية أم ختم الطرق فكان كمن وجد ضالته، مع أن فهم المقاصد لا يتحقق بالخلط بين النصوص ومعانيها، وقوفا عند القشور دون النواة، وليس الأمر تحريما وتحليلا ليتحول الموضوع إلى الدور والتسلسل.

فكلمة الختم رمز يستخدم من باب الكناية، فالتذوق يتطلب وجود حاسة له، فلا يدرك الصبابة إلا من يكابدها....

فرمزية الختم في الدولة –على سبيل المثال – رمز يحميه وزير العدل، وهو إشارة إلى أن الحكم الصادر منه هو الفيصل، ولا تراجع عنه، مع أنه وزير فوقه في سلم الحكم رئيس الوزراء، والملك أو الأمير أو الرئيس، ودونه وزراء، أقل منه رتبة إلا أنه هو حامي ختم الدولة، وتلك مزية وليست أفضلية، ولله المثل الأعلى، فلكل ظاهرة وجه جلي وخفي، وقمة الجليد تخفي ما هو أعظم منها.

فليست الصوفية بالمشبهة ولا المجسمة ولا بالحشوية، لترى في خاتم الأولياء خاتما للولاية، تشبيها بخاتم الأنبياء.

كما تتطرق الدكتور إلى قضية الخوض في الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله، فالغيب غيبان: غيب غاب عنك وغيب غبت عنه، فنجد في علم النفس التحليلي مادة ما فوق السيكلوجيا، أو ما وراء علم النفس، موضوع: «التِيلِيبَاتِيِّ» [Télépathie] (التخاطر عن بعد) أو الإحساس عن بعد، حيث بإمكان المرأة أن تشعر عن طريق حاستها السادسة، بما يتعرض له ولدها الغائب عنها، من مخاطر.

ثم إن الوحي الإلهامي والفراسة، هي الأخرى تؤكد أن ليس كل غائب بغيب.

فالعلاقة بين هذه المفردات ومدلاتها نجدها مبحثا في الفلسفة مع نظرية الفيلسوف الفرنسي اينشتاين العظيمة للنسبية العامة **théorie** de la « **relativité** » .

والمدارس الفكرية، الغربية منها والإسلامية ثرية في هذا المضمار، حيث لم تبرح الأقلام تصب عطاياها في هذه الأغوار تنقلا بين الذات وأبعادها و الأنا والهو، ولا شك في أن المدرسة السلفية لها في المسألة نصيب معلوم، من شيخ الإسلام ابن تمية إلى ابن القيم الجوزي، والإمام محمد عبد الوهاب، رحمهم الله ورضي عنهم .

ثم إن محاولة النيل من هذه المصطلحات، لا تخرج عن السعي وراء هدم كيان من خلال رموزه، كمن يستخف من مؤسسات الدولة الملفوفة بالقداسة، فيدان من يسعى للتقليل من شأنها، من هذا الباب فالدكتور وأسلافه يسعون بكل الوسائل والذرائع والمبررات، لتحميل هذه المصطلحات ما لم تحمل، بدعوى اللجوء إلى الكتاب والسنة، مع إنكار علماء مجتهدين ممن لهم الأهلية، على وتيرة الخوارج في الدعوة إلى التحكيم بالقرآن مما وصف بكلمة حق أريد بها باطل.

وكأنما التاريخ يعود بنا إلى معركة صفين، ويوم إتمام سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، الظهر والعصر أربع ركعات، في الحج يوم عرفة، فما أشبه

الليلة بالبارحة، وهؤلاء بأولئك، وكأننا بالصادق الأمين ﷺ حين يقول؛ في حديثٍ عن الإمام علي «رضي الله عنه»؛ ورواه البخاري في «صحيحه» (في كتاب فضائل القرآن، باب: إثم من رآى بقراءة القرآن؛ أو تأكل به، أو فخر):

> *«حدثنا محمد بن كثير؛ أخبرنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة عن سويد بن غفلة؛ قال: قال عَلِيٌّ؛ رضي الله عنه: ... سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ؛ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ؛ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ؛ لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ؛ فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ؛ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».*

ويورد الدكتور «عبد العزيز بن عبد الله الحميدي» في كتابه «الرسائل الشمولية»، ص: 36 نقلا من «مجموع الفتاوى» (489/28) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه :

> *«ويذكر رحمه الله في موضع آخر أن تأثيم المجتهدين هو مذهب الخوارج؛ حيث يقول: وكان سبب خروجهم ما فعله أمير المؤمنين عثمان، وعلي، ومن معهما من الأنواع التي فيها تأويل؛ فلم يَتَحَمَّلُوا ذلك، وجعلوا موارد الاجتهاد؛ بل الحسنات ذنوبا، وجعلوا الذنوب كفرا»* [22]

22. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، الرسائل الشمولية، ص: 36.

وفي هذا الإطار بين الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه، منهجه وعمله بقواعد الاجتهاد والاستنباط حيث يقول:

(قدماي هاتان على رقبة كل ولي لله؛ من لدن آدم إلى النفخ في الصور).

ويعني قيامه على قدمي الشريعة والحقيقة، فاجتهاداته وأعماله مبنية على ما جاء في الشريعة من لدن آدم إلى النفخ في الصور، والشريعة مبنية على اثنتين: «افعل» و«لا تفعل»، أي؛ الأوامر، والنواهي.

أما قدمه الأخرى فقائمة على الحقيقة، التي تعني تزويد الروح بما تطمئن به القلوب: " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ".

يعلن الدكتور محمد أحمد لوح في مقدمته:

«ومما لا شك فيه أن الطريقة التجانية هي إحدى الطرق العالمية الواسعة الانتشار، ولها أنصار ومؤلفون في جميع أقطار العالم الإسلامي شرقا وغربا، وليست سنغالية كما يتصور من ينظر في السطح فيدعوا إلى المقارنة بينها وبين الطرق الأخرى في البلاد»[23]

فتأتي شهادة الدكتور لتمثل اعترافا للتجانية، بالعالمية والعلم الوافر والمؤلفات الغزيرة في جميع أنحاء العالم شرقا وغربا ، بل يعتبر أن من ينظر نظرة سطحية وحده هو الذي يقارنها بالطرق المحلية.

23. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص ...»، مج: 1، ص: 9.

بيد أن التجانية لا تجمعها، قبيلة ولا مصلحة آنية، ولا سياسة قمعية أو تسلطية، وتنتشر عفويا شرقا وغربا، بدون إمكانيات مادية أو عسكرية أو جهوية أو فئوية مجهزة ، بل ليست وراءها طموحات سياسية أو اقتصادية أو توسعية، فتنتشر تلقائيا مع احترام الغير والتسامح في حيز الاختلاف، فلا تكفر ولا تبدع ، ليتحول رجالاتها إلى معصومين يحكمون على الناس بما يكنون في صدورهم، ويؤولون كتابات الآخرين وأقوالهم بما يَبْرَأُونَ منه إلى الله.

فالتجانية التي يصفها الدكتور بالعالمية، لم تنتشر بالعنف أو طعن الغير وتكتفي في أشد الحالات بالرد على العدوان وسد الهجوم دون تعد ولا اعتداء، وليس ذلك نتيجة ضعف أو وليدة جهل، بل انشغلوا بعيوبهم كبشر، عن عيوب غيرهم، فالمؤلفات الواسعة التي أشار إليها الدكتور، خير شاهد على سعة معرفتهم ومدى تسامحهم من غير مراوغة، مما يحول دون خوضهم في قذف الغير كيفما كان مذهبه أو مشربه.

فالتجانية تجمع ولا تفرق وتجبر ولا تكسر فمعتنقوها ينتشرون في جميع المذاهب السنية، كما أنها تتصافح مع أهل المشارب والمسالك الأخرى بمحبة وإخلاص، وتعمل بآداب الاختلاف وتلتمس للآخرين أعذارا ما وجدت إلى ذلك سبيلا، كما أن من سمات التجانية تقدير أهل العلم جميعا، واحترام

استنباطاتهم القائمة على القواعد السليمة، فلا تشمئز من عالم ينتسب إلى مذهب أو مشرب ما، مع كونها ثابتة على ما هي عليه، فقاعدتها في ذلك:
"وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"

ثم إن الدكتور لم يناقش الفكر حسب المناهج القديمة المعروفة لدى الإغريق واليونان، أو الحديثة في عهد التنوير الغربي أو النهضة الإسلامية، في عملية العرض والمقابلة، بل سلك طريق أهل الدعاية والتمذهب، لتصبح محاكمة طبق معايير فئة بعينها فيكون الطرف الآخر مدانا يحرم من الاستئناف.

الْمِحْوَرُ الرَّابِعُ: الشَّيْخُ عُمَرُ الْفُوتِيُّ: صَاحِبُ الرِّمَاحِ، بَيْنَ الرِّمَاحِ

يبرر الدكتور اختياره الانتقائي لمن يعرضهم للرجم بذريعة الكتاب والسنة، رافعا المصحف والأحاديث على رؤوس الرماح، لرمي مؤلف الرماح الحاج عمر تال الفوتي، بجريمة تميز كتاباته الفكرية المقننة حيث يقول الدكتور:

«أن الكتاب السنغاليين لا يوجد منهم من ركز في تصنيفه على بيان الأصول الصوفية إلا قليل، و لذا لم أعثر في كتبهم على مادة علمية تخدم هذا البحث الفكري بأبوابه و فصوله، فلم أنقل كلام أحد منهم غير الشخصين : الحاج عمر و الحاج إبراهيم نياس»[24]

24. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص ...»، مج: 1، ص: 9.

فبعد أن قسم الدكتور فقرات بحثه إلى مقدمة وتمهيد وأبواب، وفصول ومباحث ومطالب، حسب متطلبات منهج البحث العلمي، أورد تجريحاته وتعديلاته بمنظار فئوي، فوجد في التصوف، العلامة المجاهد الحاج عمر الفوتي و شيخ الإسلام الحاج إبراهيم نياس... كمادة سائغة يتصيد بها على من يقف على السطوح، فعرض مظاهر التقديس الخاص بالأحياء والأموات والأشياء ...ليسير على خطى أسلافه من الوهابية .

وليت الدكتور أدرك أن دراسة الفكر الصوفي أو السلفي أو الشيعي ... لا تحصر في إطار خاص، وأن عملية العرض والتحليل على ضوء الكتاب والسنة، لا تنحصر هي الأخرى في مفاهيم ومدلولات ضيقة- فالعرض والتحليل العلمي، لا يصح أن يبقى، حكرا لقوم أو مدرسة دون أخرى- وإلا تحول البحث في الفكر الصوفي إلى مجرد فكرة عن الصوفية.

إذا كان قلم الدكتور محمد أحمد لوح ينظر بمنظار مستاء فإن هناك من الوهابية من لا يكيلون بهذا المكيال، في حق هذه الآثار وهؤلاء العظام ومصطلحاتهم، فها هو ذا أحد أوائل الخريجين في تلك المدرسة الحاج محمود عمربا مؤسس مدارس الفلاح وخريج معهدها بمكة المكرمة والسلوتية الهندية والحرم المكي، المتمسك بتعاليم محمد عبد الوهاب، بعد عودته إلى

أرض الوطن بل منذ أيام إقامته في الحجاز، كان يقف وقفة موضوعية في تقدير أعلام وآثار ومخلفات هؤلاء الرواد من حملة الفكر الصوفي .

فيكتب أحد تلامذته الأستاذ «أبوبكر خالد باه»، في مقدمته لكتابه حول حياة «الحاج محمود باه» حيث يقول:

"عند علماء الفلسفة و فلسفة التاريخ الاجتماعي على الخصوص، أن التأثر صفة محمودة في دنيا التاريخ و الإصلاح الاجتماعي، بقدر ما كان التأثير كذلك، و قل وجود عبقري أو زعيم إنساني مصلح خال من صفة التأثر غير أن النواحي التي يقف عندها الكتاب و المؤرخون حول أي زعيم هو فيما اختص بها من حيث العزيمة و المنهجية و الاتحاد الفكري الذي لا يميل عنه لو أن الجبال مالت"[25]

ويورد الباحث أبوبكر خالد با هذه القصيدة التالية، وهي أكبر إنتاج شعري للحاج محمود عمر با، حيث تجاوزت أبياتها مائة ، مع مقدمة شارحة، فنكتفي بنشر جزء وافر منها لأهميتها التاريخية، حيث يذكر مناقب المجاهد والعلامة الذي جمع السيف والسبحة والقلم، تحت عنوان:

«الحاج عمر الفوتي: فتى المعالى»

25. أبو بكر خالد عمر باه، «الحاج عمر باه: مؤسس كبرى الحركات: الفلاح»، نسخة مرقونة غير منشورة، ص: 69.

يقول الحاج محمود في تقديمه:

«هذه قصيدة غرامية؛ صاغها المرتجي رحمة ربه العزيز، العبد الضعيف المسكين، الذي لا رجاء له من أعماله إلا الله و رسوله ﷺ. و بعد: إن هذه القصيدة تذكار بآثار العَلَمِ الرباني، و الحبر الصمداني؛ ذخر الأمة المحمدية، و محيي السنة النبوية الأحمدية؛ من جهاد، وهجرة، وتآخ بين المسلمين الذين كانت شتت عرى وحدتهم الروح القبلية؛ ذلكم السيد المبارك، الحبل الإلهي «الحاج عمر الفوتي».

«قد قمت من مسقط رأسي ببلدة جِوُلْ (الموريتانية) قبل انتقالي إلى «خاي» (سدى= سوادن فرنسا [=مالي حاليا])؛ أذهب إلى حصنه الأفخم الأبلج، و ذلك في يوم الأربعاء 25 من ذي الحجة سنة 1364هـ. ومثلت الحصن كعجوزة متروكة في الطلول ظعن عنها أهلها و هي حزينة باكية تذكر الله تعالى من قراءة القرآن و الأذان في الصلوات الخمسة.

و سألتها هل هذا الحزن الدائم و الأسف المضني لسبب مصائب الدنيا التي لا زالت تعاكس الأمور، أهي حزينة لبعد السماوات و النجوم عن الأرض، أم هي حزينة لسبب ذهاب جيرانها عنها و حلول الآخرين من سكان الدنيا على مشارفها فُسَاقٌ لا يحافظون على الود القديم إنها حزينة بسكوتها و عجزها عن الجواب .

و سألتها عن الرجال و النساء الذين كانوا هنا ركعا و سجدا آناء الليل و أطراف النهار في هذه الأماكن فقالت: فقد ذهبوا مع الذين جئت

لزيارتهم، ومن حرصت على تعداد مآثره، هو الذين استجابوا لدعوته و باعوا نفوسهم في سبيلها فنصرهم الله و جزاهم بها عملوا، لأن هجرتهم في سبيل الله .

و مثلتهم بأصحاب الكهف في دقيانوس في (شرق الأردن) ...

ســلام للديــار الخاليــات	وأيــام مضيـــن مسوَّمــات
وقفـــــت بها أسائلها لماذا	عشية جئتها متســــــترات
نكصن رؤوسهن و كن قبلا	منيرات الوجوه مبشـــرات
لقد كنتـن معدن كل فضل	وكنتن العـــرائــس نيـرات
أم الدهـــر الخئون وساكنيه	أم الملــويـن كــن مؤلمات
أم الوهاج في الأفلاك يجري	أم البدر المنــير المظلمــات
أم الخضـرا نأت عن كن بعدا	وأنجمها الثواقــب زاهرات
لمـا ذا أم من الثقلـــين طرا	نوازلهـا فكـــن معجبـــات
أم الغبراء و ما نزلـت عليها	من الخطبات تأتي العاكسات
فلأيا صـرت حيرانـا حزينا	بهن أكن لصمـــا خالدات
عهدت بها رجالا مؤمنــين	جماعــــــات نساء مؤمنات
و كانوا للإله عبيد صـــدق	و هن بهم حقيقـــا طائعات
إذا ما الليل أسجى جانبــاه	تراهم راكعــين و راكعـــات
يجافون الجنون على رجـــاء	وجوها للمهيمن ساجـدات
لقد هجروا عن الأوطان طرا	مع الفاروق ماحي السيئات

فتى في المجد طلاع الثنايا ❁ و في يوم الوغى ذو المنقبات

فتى في الفضل مورث كل فضل ❁ و في الباسا يقيم المعوجات

فتى خاض المهامة شاسعات ❁ فآب و قد أتى بالمكرمات

فتى أخذ المطالب مصحبات ❁ و هز بها فعادت الطائعات

فتى أخذ الثريا باليمين ❁ على نجب العتاق الناجيات

فتى قد كان دراك المعالي ❁ و قبلا ذو الهبات الوافرات

فتى نادى إلى العليا جهارا ❁ على غرر الخيول الصافنات

فتى قاد الجيوش الجري حتى ❁ تحرك للجبال الراسيات

فتى نادى إلى الحسنى فلما ❁ رأى منهم قباحا فاجرات

فجاءوا باليمين السمهري ❁ للدنا فوق أعناق العداة

وسل السيف و انقطع الكلام ❁ فلا تسمع عدا قيل الكماة

أجبناكم أيا فاروق عمر ❁ بدعوات لكم متتاليات

لقد أسمعت لو ناديت إنسا ❁ فكيف و هم سوام مرتعات

لقد أسمعت لو ناديت حيا ❁ لقد سمعوا عديا الغافلات

أيا فاروق عمر الفوت جئنا ❁ بنيات نقات صادقات

دعوت ب (فوت) جفلى في أمان ❁ و من يأبى نصائح خالصات

سوى غمر دني الطبع ناء ❁ عن الحور الحسان القاصرات

عرائس عند جنات الإله ❁ مضيآت خرائد خالدات

و لم يطمسن قبل وهن دوما ❁ على حلل الستور الساترات

بعدن أو بجنـــــــات النعيم	۞	خلقن لمن لهم متحببـــــــات
خلقن لكل خواض المـــنايا	۞	و بياع النفوس العاليــــــات
ألا لله في أرض السمـــــــاء	۞	قصور عاليات مالســـــــات
و لكن إنها حفت و نيطـــت	۞	مكـــــــاره مؤلمات مثقلات[26]

فهذه القصيدة المدحية الرائعة قالها وهابي في حق متصوف.

ولا غرو، فلقد كان الشيخ عمر الممدوح في هذه الأبيات، علما مجاهدا متصوفا ، جمع بين السيف و السبحة ، إلى جانب القلم الناصح و القلب النابض ، نصر الأمة، فأدى الأمانة و لم يقصر؛ فكان خير خلف لخير سلف ، فارتفع ذكره و شاع صيته، و أبى إلا أن يترك لنا تراثا زاخرا، ككتاب «رماح حزب الرحيم عَلَى نحور حزب الرجيم»، و«سَفِينَةِ السَّعَادَةِ لأهل الضعف والنجادة»... والأول سلاح لحفظ «جَوَاهِرِ الْمَعَانِي وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني» من ناحية ومن أخرى لتكون السفينة عصا النجاة وحاملة الجيوش الطلع، في بحر هائج تفرقت فيه الطرق واختلفت الأهواء و كثرت المحن؛ حتى ﴿... يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾. [سورة الأحزاب: 12].

---

26. أبو بكر خالد عمر باه، «الحاج عمر باه: مؤسس كبرى الحركات: الفلاح»، نسخة مرقونة غير منشورة، ص: 90.

فجاءت السفينة لتحمل أهل الضعف و النجادة من أرض الزلزال إلى بر الأمان.

المِحْوَرُ الْخَامِسُ: الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ انيَاسْ: كَاشِفُ الْإِلْبَاسِ لِفِرْيَةِ الْحُلُولِ وَوَحْدَةِ الوُجُودِ

قام الدكتور محمد أحمد لوح في بحثه بحصر رجال الفكر الصوفي بالسنغال في اثنين هما: الحاج عمر الفوتي، والحاج إبراهيم نياس، فلم ير أن هناك حصادا فكريا صوفيا خارج إنتاجهما، من بين كافة رواد هذا الميدان الكثيرين في ساحة مليئة بجهابذة عظام، مع إنتاجاتهم العلمية الغزيرة، وأرضيتهم الاجتماعية والثقافية الراسخة، والعميقة الجزور، نتيجة بعدهم الفكري والاستراتيجي، فأقاموا صرحا شامخا، خلاف ما يذكر الدكتور:

"أن الطرق الصوفية المحلية في هذا البلد ليست مقننة ولا مؤصلة من الحيثية الفكرية ومصنفات أصحابها – إن كان لأصحابها مصنفات – لا تكاد تخرج عن تكرار لبعض جهود الصوفية المتقدمين في شكل تلخيص بعض الكتب. [27]

(و يقول في موضع آخر):

27. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص...»، مج: 1، ص: 8.

"أما الطرق الصوفية العلمية المقننة بدقة فتحتوي على هذه القوانين وتلك الأصول".

ويردف الدكتور قائلا:

"و مما لا شك فيه أن الطريقة التجانية هي إحدى تلك الطرق العالمية الواسعة الانتشار، و لها أنصار ومؤلفون في جميع أقطار العالم الإسلامي شرقا و غربا و ليست طريقة سنغالية كما يتصور من ينظر في السطح فيدعو إلى المقارنة بينها و بين الطرق الأخرى في البلاد "[28].

ولكثرة التساؤلات عن الدافع إلى هذه الهجمة الانتقائية، يتبادر إلى الذهن أن الحافز لاختيار هذا الموضوع المتحرش وهذه العينة المستهدفة، قد يعود إلى عوامل بيئية، منها الجهة المشرفة على البحث، والمراجع المعتمدة لديها، فغرف الدكتور ليصب من وإلى نفس الوعاء، فالرجلان تعرفهما البطحاء والبيت والحل والحرم، بعلمائها وأعيانها، وقد جرت بينهم مناظرات، ومساجلات، كان لها دوي وصدى واسع، فبقيت رواسب الضغينة الناجمة من تلك المناظرات، التي خلفت جراحات لم تندمل، دفينة في سجلات ومكتبات الجهة المشرفة.

فلقد سبق محمد طاهر ميغري الدكتورَ محمد أحمد لوح في هذا المضمار، حيث تطرق إلى الشيخ إبراهيم نياس في أطروحة مماثلة لنيل درجة الماجيستير

28. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص...»، مج: 1، ص: 9.

في دراسة من نفس الجهة المشرفة على البحث، تحت عنوان: «الشيخ إبراهيم نياس السنغالي: آراؤه وأفكاره وتعاليمه». وبالرغم من كثرة ما أوخذ عليه، فإن له ميزة من حيث المنهجية عن الدكتور محمد أحمد لوح، حيث نزل إلى الميدان، فجمع بين ما دون في الكتب وما استنتج في أرض الواقع، بيد أن الدكتور محمد أحمد لوح من أبناء نفس البلد، خلاف محمد طاهر ميغري.

و قد سبق هما «قاضي قضاة المسلين بنيجيريا » الشيخ أبوبكر محمود غومي الذي ينتمي هو الآخر إلى الوهابية، وكانت ميزته أنه ناظر المعني، حيث وجه رسالة خطية إلى الشيخ إبراهيم نياس يستفسر فيها عن مسائل ذات صلة بالفكر الصوفي، بأسلوب حواري على أساس من التقدير والاحترام، فجاء الجواب، بنفس الوتيرة وعلى أساس من العلم والبرهان، وفي ما يلي نص رسالة الشيخ أبي بكر محمود غومي ورد الشيخ إبراهيم نياس:

بسم الله الرحمن الرحيم

و صلى الله على النبي الكريم يا مولانا الشيخ إبراهيم نياس ، بعد كل الحفاوة و التقدير أرجو أن توضحوا ما يأتي من الفتاوى الصوفية يرحمكم الله ، فعندنا من الناس من ينتسب إليكم من المريدين و يزعم أنه يربي التلاميذ بخلوة يعبد فيها التلميذ حتى يصل إلى درجة يقال إنه وصل بها إلى المقصود ، و ذلك هو أن ينطمس التلميذ في حال و يجيب عن كل شيء يسأله شيخه عنه بأنه هو الله ، فلو سئل عن نفسه يجيب

بأنه الله و عن كرسي أو أي شيء يجيب كذلك ، فما حكمه في ذلك ، وما حكم هذه العملية شرعا ، و إن صحت شرعا فما تأويل معنى رب العالمين لمن وصل إلى هذا الحد ، و ما الفرق بينه و بين الحلول ، أو قول النصارى أحد الثلاثة ، أفتونا يرحمكم الله و أسندوا الحكم بأدلة قرآنية و أحاديث نبوية صحيحة فلكم جزاء الخير من الله الكريم و مع الشكر الجزيل

تلميذكم الراغب فيكم أبوبكر محمود غومي

فأجاب الشيخ إبراهيم نياس رضي الله عنه بقوله:

الحمد لله الواحد الأحد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفؤا أحد ، هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شيء عليم ، ليس كمثله شيء ، و هو السميع البصير ، و الصلاة و السلام على رسول الهدى سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم القائل كان الله و لا شيء معه ، و قال علي كرم الله وجهه و هو الآن على ما عليه كان و بعد فإنك أيها الأخ الصالح ، و الخل الناصح ، قاضي قضاة المسلمين بنيجريا الحاج أبوبكر غومي ، كتبت تسأل عما يجري من ألسنة بعض من يدعي السلوك و الوصول أو الفتح و الفناء و هذه كلمات اصطلح عليها أهل التصوف و المعنى واحد و كلهم في البداية ربما نطق بها ينحو نحو هذا عند محبتهم للحق و غرقهم في الحضور حتى لم يسمعوا و لم يبصروا شيئا مما يجري في العالم فيقول : الله على كل حال ، و لا يعني أبدا أن هذا الذي يراه ويبصره هو الله سبحانه و تعالى كما وقع لنبي الله

إبراهيم، رأى كوكبا قال هذا ربي ، رأى القمر قال هذا ربي ، رأى الشمس قال هذا ربي ، و قال تعالى : (و ما كان من المشركين) و لو قصد أن الكوكب ربه لكان مشركا ، فلهذا تجد ذكر إبراهيم في القرآن مقرونا بنفي الشرك عنه ، و هذه الحالات كما يقول من يعرفها لا تدوم، و على كل حال من نطق بها يخالف القرآن نكفره نحن حماة الشريعة فإن تاب و رجع عن ذلك فيما بعد قبلناه و على كل حال فيوجد صادقون و كاذبون .

من تحلى بغير ما هو فيه   كذبته شواهد الامتحان

نسأل الله أن يرينا وإياكم الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه ويوفقنا جميعا لما يحب ويرضى. والسلام[29]

وهذا الأسلوب العلمي والاحترام المتبادل وصفاء القصد هو ماكنا ننتظره من الدكتور محمد أحمد لوح وأمثاله من الدعاة، عملا بأبجديات أسلوب الدعوة على خطى الشيخ أبي بكر محمود غومي، فعلى الرغم من وفاة الشيخ إبراهيم نياس، فإن أبواب معرفة مقاصده في ما قال وفعل مفتوحة بمصاريعها، فالخيال ثم الحكم على المتخيل بالخيال لا يجدي.

البُعْدُ الحِوَارِي فِي فِكْرِ الشيخ إبراهيم نياس: بين التنظير والتطبيق:

إن التطرق إلى شخص أبي الفيضة شيخ الإسلام الحاج إبراهيم نياس لمبحث مهم في بدايات فترة ما يسمى بالاستقلال في العالم الثالث، فيجدر

29. عثمان جاه، التجانية في الأدب السنغالي العربي، ص: 385، 386.

تقليب صفحات التاريخ السياسي السنغالي من جهة والإفريقي من أخرى، بل العالم الثالث بأسره، وهي فترة جديرة بالدراسة.

كان الجميع يترقب فيها القطيعة، بين ماض استعماري مظلم، صوب مستقبل تحرري مشرق، فكثرت التكهنات وانتشرت الشائعات، فكانت الحياة مدا وجزرا وأخذا وردا.

كان صاحب الفيضة الشيخ إبراهيم نياس، قد ظهر في هذا العهد، فجاءت أقدامه على تلك التي خلت من أصحاب الرسالات السامية والهادفة: جمعا بين العقل والنقل وبين الوجدان والتحليل، فسعى لها سعيها على أساس أن: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

فقام بساق الجد، فأدى الأمانة وبلغ الرسالة، جمعا بين الواقع والمأمول، فجاءت مواقفه واضحة البيان فصيحة المقال بعيدة المغزى عريضة المسعى.

فنظر إلى الأحداث من حوله بعين ربانية فاحصة، فخاطب الماضي والمستقبل، والحاضر والغائب.

فعلم الجيل الجديد، أن السياسة جهاز خطير إن لم تستعمله استعملك، فهي حصان إذا امتطاه الماكر المارد نشر الفتن وقلب الحياة رأسا على عقب، كما أنها جواد إن امتطاه الأخيار أوصلهم إلى بر الأمان، فهي عند صاحب الرسالة بناء وتشييد، ثم إن ساحة السياسة معركة ضارية وحرب باردة في آن واحد، فهي زمهرير حين تضع الحرب أوزارها، وجحيم عندما تشتعل نار الفتنة.

فوقف العارف بالله ليواجه أهل لعبة الشطرنج وأصحاب المكر والدسائس، بمكر من الله ينطلق من القواعد، ليرفع مساجد وبيوتا أذن الله أن ترفع.

فكانت مواقفه السياسية رضي الله عنه محلية أولا، ليبدأ بالذي يليه، ثم قارية ليتناول ما حوله، وأخيرا عالمية لتملأ البسيطة.

ثم إنه رضي الله عنه، كانت له مواقف من الأحداث والمستجدات، ليكون على مستوى تحديات زمانه.

كانت إفريقيا وقتها تنتظر و معها العالم، زوال المعاناة و الويلات التي قسمت ظهر البعير، و حصرت بقاع الأرض من خلال تجزئة شملت كل قوم في حدود جغرافية وهمية ، لكي يسهل سلب الثروات، و كبح حرية الإرادات، و طمس الهويات، لتتم السيطرة على الأرض من خلال شرذمة قدمت من الغرب بثوب مسيحي، المسيح منه بعيد، و بقناع يهودي يعقوب عليه السلام منه بريئ براءة الذئب من دم يوسف، فنشروا ثقافة الرومان والإغريق و الهلينية ، و جعلوا نابليون و لنين و ماركس و الكرادين أقطاب ملتهم ليملأوا الأرض ظلما و جورا، و ليغيروا خلق الله و فطرته التي فطر الناس عليها، فأكثروا في الأرض الفساد، فعم الظلام، وفشى الجور، وأهدرت الدماء، و انتشر الاستعمار أو الاستحمار .

كان الشيخ رضي الله عنه شاهد عيان، و اعيا لما يجري من حوله، فأدرك مدى عمق البلاء، فوقف إلى جانب علماء جهابذة في المشرق

والمغرب، و مع كفاءات سياسية في المحيط الإفريقي، وشخصيات محترمة في السنغال، فتدارس مع هؤلاء و أولائك مخاطر الكيد و المكر، وطرق الخلاص منه، فجاءت المرحلة مؤاتية لانتشار الوعي و إدراك الخطر، حيث عمت الأرجاء، الاحتجاجات و المظاهرات من أجل استقلال فوري، واسترجاع آني للحريات المسلوبة.

فقام الشيخ رضي الله عنه بساق الجد، جنبا إلى جنب، مع أهل الحل والعقد، من رجال يرى فيهم أهلية تحمل الميثاق الغليظ، فكان ولوجه في السياسة، كورده داخل المحراب، ليعلن أن سبحوا بكرة وعشيا.

فكما أن في المساجد من يقولون ما ليس في قلوبهم، فكذلك الحال في السياسة من يكثرون من الشعارات البراقة، والعبارات الساجعة، ليقلبوا المفاهيم والمقاصد السامية، إلى مصالح شخصية آنية، فارتفع من خلاله رضي الله عنه، صوت ينادي هفاة البشر.

كانت الفيضة المحمدية الأحمدية الإبراهيمية متعددة المحاور والأصعدة سواء العاكف فيها والبادي، فهي لعموم البسيطة في مختلف ميادينهم وأنشطتهم وتوجهاتهم: في الحياة الروحية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

وبما أن السياسة هي المحركة الأولى لكل ما يجري وما يحاك فإن إصلاحها هو إصلاح كل المجالات، والغفلة عنها هي الغفلة بعينها.

جاءت مسيرة الشيخ إبراهيم رضي الله عنه: تنبيها للفرد السنغالي، أن الإسلام ليس عاهة لعدم القيام بمهمة سياسية.

فوقف مع «لمين غي» في مواجهته لـ«سنغور» لقيادة البلاد، بعد انسحاب الاستعمار من الواجهة، فكانت رسالة الشيخ رضي الله عنه واضحة، فهي مجرد تأييد مسلم، في رأس الإدارة ، حتى لا يرسخ في الأذهان أن لا يصلح للقيادة إلا مسيحي، مما قد يؤدي إلى شعور بالنقص، فكانت مواقفه رضي الله عنه صريحة المعنى و بينة المبنى.

ثم جاءت مواقفه رضي الله عنه من القطر الإفريقي: وقوفا إلى جانب الدكتور «كوامينكروما» و«جمال عبد الناصر» و«الشيخ توري»؛ ليؤيد الرفض والتحدي للاستعمار حتى لا يضيع حق وراءه طلب.

ثم جاءت مساعيه رضي الله عنه على الصعيد الدولي والقاري والمحلي: من أجل نصرة اللغة العربية المحرومة، والقرآن الكنز المكنون.

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عضوا مؤسسا لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، يجول شرقا وغربا بين مؤتمرات إسلامية مؤيدا الجماعات المتباينة: الشيعية بلبنان، والسلفية بلاهور وكراتشي، والمذاهب المختلفة بمصر فهو الفرد الجامع لهذه الأمة على اختلاف مشاربها.

تلك مواقف سياسة سعى لها «الشيخ إبراهيم انياس» رضي الله عنه سعيها، من أجل حماية مساجد وبيوت يذكر فيها اسم الله.

ففي ميدان الأخبار والمستجدات، كان يتتبع عن قرب مجريات الأحداث، فلا تفوته نشرة الأخبار المبثوثة عبر الأثير، وتحاليل ما بعدها، فمقالاته رضي الله عنه تصاغ عن علم ودراية، بما يجري في المجتمع.

والمتابع لحديثه وكتاباته عن إسرائيل ورجالاتها جملة وتفصيلا ومن خلفهم، في سلوكهم ونواياهم المبيتة، يرى مجاهدا في ساحة الوغى، بعبارات صحفية معاصرة، وتحاليل سياسية عميقة، تتحدى المكان والزمان، فيذكر بالاسم أمريكا ورؤساءها وإسرائيل وجنرالاتها، فكأن مقالا ته كتبت اليوم للرئيس الأمريكي «ترمب » المغامر في اتخاذ القرار القاضي باعتراف القدس المحتلة عاصمة للكيان الصهيوني الغاصب.

وإلى جانب السياسة كانت للشيخ رضي الله عنه أدوار في الاقتصاد والثقافة والأدب والمجتمع فكانت حياته نعمة، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها.

فأحيي رضي الله عنه الأرض بعد موتها، وقوم المفاهيم بعد انزلاقها. هكذا عجلة التاريخ، ومسيرة العظام من آدم عليه السلام إلى الشيخ إبراهيم رضي الله عنه، صراع أبدي بين الحق والباطل، والصالح والطالح.

فها هو ذا الولي والعارف بالله والفرد الجامع، قطب زمانه، يسير سير زمانه، جمعا بعد الفرق، حسا ومعنى تنظيرا وتطبيقا، توفيقا بين العبادة والمعاملة.

فالولي لا يأتي بدين جديد ولكنه يأتي بفهم جديد.

وكانت كتابات الشيخ إبراهيم رضي الله عنه "كإفريقيا للإفريقيين" وبعض رسائله في "جواهر الرسائل" رفعا للنقاب، حيث يضع النقاط على الحروف، فلا يترك الغيوم تحجب شمس الحقيقة، ولا يرضى بالصمت في محل بيان، فرسالته كاشفة الإلباس، حتى لا يصبح الخالق مغيبا، والمخلوق

محجوبا، ثم إن الشيخ جاء معلما ومؤلفا، فلم يترك قواعد طرق التدريس ومنهجية الكتابة ومتطلبات الأمانة العلمية مهملة ...

فلقد عشت بفضل ومنته، تحت ظله الظليل، ونهلت من مناهله العذبة الفياضة، واستمتعت بمعاينة ابتسامته المشرقة، وتلذذت بصوته الجهوري الواضح، بل أعجبت بمواقفه الجازمة، فليس ممن يترك الظلام يطغى والشك والريب يسود، فأفعاله وأقواله وحياته كلها محجة بيضاء ليلها كنهارها.

فكتابه "إفريقيا للإفريقيين "عنوانه يعادل كتابا، لما يحوي من بعد وعمق ومعان ذات دلالات ثقافية وحضارية، مع مسايرة العصر ومستجدات الأحداث.

فحياة الشيخ رضي الله عنه رموز و إشارات لا تدرك إلا بعد حين، فتفسر مهما ذلك القبر بعثر، مما يجعل المتتبع لأدبه يقف عند بيت القصيدة، الجامع المانع.

ثم إن الشيخ رضي الله عنه بدأ في طرحه لكتاب "إفريقيا للإفريقيين " بسورة الإخلاص ، و هو يخاطب كبار القساوسة و من خلاله الكنيسة والغرب، فكانت له في سورة الإخلاص دعوة إلى كلمة التوحيد، التي هي سواء بيننا و بينهم، والشيخ و هو فارس حلقات التفسير و معتركه ، فكانت في إشارته و ترنمه بالسورة ذكرى لأولي الألباب، تأملا و تدبرا في ميدان أولي النهى، كما أن في ذلك الحوار إفحاما لمن زعموا أنهم يحتكرون العلم و الفكر،

ليقول بلسان حاله : أطرق كرى إن النعامة في القرى، فيفحم الخصم الذي حاول طمس القرآن الكنز المكنون، و اللغة العربية التي في أحشائها الدر كامن.

فاعتبر الخصم أن القرآن و ما تحوي المكتبات الإسلامية الثرية هباء منثور، وأن ما يحمل علماؤها الأعيان و جهابذتها العظام، و ما نشروا من علوم و ثقافة و حضارة في أوربا، لتحميها من الضياع والتلاشي لمدة ثمانية قرون قبل الإجلاء من الأندلس، هو أيضا كغثاء السيل، فنسي جان لفيفر JEAN LEFEBVRE أن المدنية الغربية التي يتباهى بها لم تتجاوز ثلاثة قرون من عهد التنوير في القرن الثامن عشر، فرأى أن العلم و الثقافة و الحضارة و التطور الإنساني أحادي المبنى و أعور المنظار.

فأتاهم الشيخ من قواعدهم، فخاطبهم بالسهل الممتنع القائم على البداهة فدخل عليهم الباب، فجاء كل حرف في هذا الكتاب بألف، ليضم في طياته ما يحتاج إلى بحوث متراكمة.

ففي كتاب إفريقيا للإفريقيين نشاهد بالعين المجردة، إبراهيم الحجة، يترافع عن إفريقيا والقرآن والمحاضر العلمية، مؤكدا أنها مراكز إشعاع علمية، وحاضنات اجتماعية وروحية، وأن فيها خلاص الإنسانية، وأن الدولة التي احتكرها الغرب من خلال الكنيسة ليست جديرة و لا مستحقة، لما هي عليه من مكانة قيادية أو طرح سياسي، و إنما جاء ذلك من باب فرض أمر الواقع والسيطرة بالقوة، و استعمار الغير ظلما و جورا.

ثم يأتي إبراهيم المحامي لإفريقيا والإسلام ليضع الكنيسة في قفص الاتهام من خلال تاريخها في الغرب وممارستها للدولة، واستغلالها للضرائب، وكيلها بمكيالين، فهي تعفي القساوسة والرهبان عن دفع الضرائب، وتمنحهم عقارات شاسعة، وغير ذلك من الامتيازات، مخالفة أعراف وقوانين الدولة، التي يتساوى فيها المواطنون، في الحقوق والواجبات، فتبين من مرافعة الشيخ المحامي، الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، و تبين الرشد من الغي.

و ينهي المحامي الملهم مرافعته، بأن تهمة جريمة استغلال الإنسان للإنسان الموجهة إلى المشيخة و علماء الإسلام من طرف «جان لفيفر ، [JEAN LEFEBVRE] كبير القساوسة، جريمة متجسدة في عين المتهم و فئته، كمن يقول: ضربني ثم بكى وسبقني ثم اشتكى .

فهذا الأسلوب الإلهامي لا يتأتى إلا لذي حظ عظيم.

فتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه.

فإفريقيا للإفريقيين نفحة إلهية من ذلك الفيض الرباني في سياقها وأسلوبها، وفي أبعادها ومعانيها، إحاطة بالنور المطلسم.[30]

---

30. محاضرة ألقيتها بمناسبة ذكرى اليوم السابع للمولد النبوي ﷺ بمدينة الشيخ إبراهيم نياس بكولخ سنة 1439هـ.

الْمِحْوَرُ السَّادِسُ:: إِخْرَاجُ كُلِّ مِنْ الشَّيْخِ (أَحْمَدْ بَمْبَ و(الْحَاجِّ مَالِكْ سِي) و(إِمَامِ اللهِ الْمَهْدِيِّ) مِنْ دَائِرَةِ الْفِكْرِ زَلَّةٌ فِي الْمَنْهَجِيَةِ

قام الدكتور محمد أحمد لوح بإخراج أعلام من رجال التصوف بالسنغال من دائرة الفكر في بحثه الموسوعي، مع خطورة إسقاط أعلام مستحقين، واتهامهم بخلو إنتاجهم من فكر مقنن، فالحد الفاصل بين الإنسان والحيوان أنه كائن مفكر، فإن وصف أعلام بأنهم عديمو الفكر، بحجة غياب عنصر التقنين، فتلك إهانة أخرى أشد ضراوة، لعلماء أفذاذ جمعوا نوادر العلوم والمعارف، وتحلوا بتقوى الله وطاعته، فيبرر الباحث ما ذهب إليه، أنهم إنما نظموا بعد مؤلفات سابقيهم، فمن من الرجال لم يعتمد على سلفه ممن يعتد به نثرا أو شعر في مذهبه، وأين من أتى بجديد لم يسبق إليه. فيكتب الدكتور قائلا:

«و الذي يريدني أن آخذ من مؤلفات ... كتب غير التجانية – كالمريدية و اللايينية – بحجة أنني ذكرت التجانية و غيرها من عشرات الطرق التي رجعت إلى كتبها هو في الحقيقة يريدني إما أن أنزل إلى الشوارع وأصنف ما أشاهده، و إما أن آتي بشيء غير موجود هذا ما وصل إليه اجتهادي في جهود المؤلفين من صوفية السنغال ، فإن المريدية التي أعتقد أنني مررت بأغلب كتبها التي تدرس للدارسين أيام النشأة العلمية الأولى لا أظن أن من الممكن مقارنتها بالتيجانية في هذا

المجال. وهذا الموقف ذاته هو موقفي من مؤلفات الحاج مالك سي التعليمية التي درست منها عددا أيام إقامتي في (اندر) مترددا على زاويته و غيرها من المحافل طلبَ العلم»[31]

ثم يضف في نفس المضمار:

«ولا تكاد تجد من هؤلاء من كتب يقول: طريقتي لها من الشروط كذا و كذا .. و من الأحكام كذا و كذا .. و من أخذ وردي فله كذا و كذا من الفضائل و المقامات.. و من ترك طريقتي بعد أخذها فعليه كذا و كذا و هذا الأمر الواقع أدى ببعض الباحثين من المتصوفة إلى التردد في كون أكثر هؤلاء قصدوا إنشاء طرق خاصة بهم»[32]

ثم يمضي ليقول:

"أما الطرق الصوفية العلمية المقننة بدقة فتحتوي على هذه القوانين وتلك الأصول[33]*.*

فخلاف ما ذهب إليه الدكتور، فقد بنى رجالات التصوف في هذا البلد، فكرا صوفيا مقننا في عدة محاور وأصعدة، وفي شتى مجالات: الحياة الروحية منها، والممارسات الاقتصادية والتحركات السياسية والأنشطة الاجتماعية والثقافية، فتحدوا به المستعمر وكل التيارات الوافدة: المناوئة منها للفكر

31. محمد أحمد لوح، «تقديس الأشخاص...»، مج: 1، ص: 9.
32. المصدر السابق: مج: 1، ص: 8.
33. المصدر السابق: مج: 1، ص: 9.

الصوفي، أو الكنسية أو العلمانية، فرسخت بصماتهم على إنتاجهم شكلا ومضمونا، وبقي عطاؤهم المتوارث ليزداد كما وكيفا، مجتازا حدود الوطن ليصبح جزء من العولمة.

ويبرر الدكتور حصره لحملة الفكرالصوفي بالسنغال في: الشيخ عمر تال والشيخ إبراهيم نياس، من بين رجالات الفكر الصوفي في السنغال بكون البحث يصب في الفكر وأنه لم يجد في المريدية وعند الشيخ الحاج مالك سي، وإمام الله المهدي فكرا، من خلال ما يسميه بالمقنن، ويبرر ذلك بعدم وجود شروط ومحظورات ملزمة للمنتسب إليهم، ومزايا يترقى من خلالها المنتمي، كما هي الحال في الطرق العالمية "المقننة" على حد ما ذهب إليه الدكتور، مما يظهر محدودية معرفته بالمجال ورجالاته.

فالمريدية طريقة صوفية مقننة بشكل جلي وبمنهجية علمية واضحة المعالم، ففي كتاب: خاتمة المناجاة ومسالك الجنان، ما يروي غليل الباحث النزيه في هذا الإطار، من مادة دسمة، وفي تآليف أخرى للشيخ أحمد بمب وأتباعه وذويه ممن عكفوا على توضيح معالم الطريقة المريدية، والدراسات القيمة الكثيرة في هذا المجال خير دليل على فكرية هذه الطريقة لدى كل ذي فكر، ولعل القرب حجاب.

فيقول الشيخ أحمد بمب عن مواصفات المريد الصادق:

صفات صادق المريد باختصار ❁ أربعة نظمتها خوف اغترار

الصدق في محبـــة الشيخ أبد	۞	ثم امتثال أمره حيـــث ورد
و ترك الاعتراض مطلقا و لو	۞	بباطن عليه فيما قـــد رووا
ومعــه سلـــب الاختيار	۞	لحسن ظنه بلا إنكـــــار
فكل من جمع هــذه الصفات	۞	من المريدين فيدرك الثقات[34]

وأما عن الشيخ الحاج مالك سي فلا يخفى على أي متوسط الثقافة أن التجانية وحدة لا تتجزأ، والمرجعية فيها للشيخ أحمد التجاني المؤسس، ثم إن زاوية تواوون، قد كتب علماؤها بإسهاب حول أساسيات الطريقة ومن قبيل ذلك كتاب إفحام المنكر الجاني وكفاية الراغبين...

أما إحجام الدكتور عن التطرق إلى المريدية وزاوية تواوون التجانية فيبدي قصوره من ناحية، وغياب خلفية حول الموضوع بالنسبة للمشرف على الرسالة، كذلك البيئة التي قدم فيها البحث، فاكتفى الدكتور ببضاعته المزجاة، فلما انصبت عليه المآخذ الجمة، لجأ إلى تبريرات زادت الطين بلة.

والجلي أن لولا التقنين السليم، لما صمدت هذه المسالك، أمام العواصف من الداخل والخارج عبر العصور وفي مختلف الأصعدة، من منكري التصوف ورجال الكنيسة والاستعمار...وكذلك لولا وجود فكر نير، بعد عناية ربانية، لما رسخت أقدام هذه الطرق الصوفية، بهيكل تنظيمي

34. محمد المرتضى امباكي شيخ فاط فال، «المريدية: الحقيقة والواقع وآفاق المستقبل»، ص: 100.

منسق، وبأهداف محددة، وغايات محققة، مع قابلية تعبئة شعبية واسعة، وإمكانيات مادية.

ثم إن ما ذهب إليه الدكتور من خلو اللايينية المهدوية من التقنين، يتنافى مع هيكلها وانتشارها وصمودها، بعقيدة ومفاهيم واضحة، ومزايا المنتمين إليها... مما يخلف مادة بحثية هائلة، وهناك دراسات عديدة حولها في "المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء، بجامعة دكار سنغال" وبالتالي فإنها مقننة ومنسقة كمثيلاتها التيجانية والمريدية.

فمفهوم الفكر عند الدكتور بعيد عن مأخذ الجد، فهو أقرب إلى محاولة هدم فكر خلفه فكر بديل، عملا بمنطق "البقاء للأصلح" وهو قانون طبيعي في حياة الكائنات، وقد جربها هتلر للهيمنة على الغير.

الْمِحْوَرُ السَّابِعُ: بَعْدَ «تَقْدِيسِ الأَشْخَاصِ» فِي الغُرْبَةِ؛ فَهَلْ مِنْ أَوْبَةٍ:

إن ظاهرة الاختلاف بين الوهابية والصوفية في ساحل الغرب الأفريقي ليست وليدة اليوم فلقد دار ت مشاداة بين علماء اللغة والفقه ممن ينتسبون إلى كل من السلفية والصوفية، وكانت تطغى عليها العاطفة والتمذهب في أغلب الأحيان، إلا أن الأرضية كانت علمية، فما كان الاختلاف يفسد للود قضية.

وحسبنا تمثيلا بل قدوة الشيخ الحاج محمود عمر با (1908-1978)م والذي كان أسلوبه الدعوي منذ أيام إقامته في مكة المكرمة للدراسة، مستندا إلى توحيد الصف عن طريق إيجاد علاقات أخوية مع زعماء الصوفية المعاصرين له، أمثال الشيخ سعيد نور تال، فعند عودته قام بتتبع آثار الشيخ الحاج عمر الفوتي كما تبين ذلك في القصيدة السابقة، بل جمع ذات مرة الطرق الصوفية والتنظيمات الإسلامية في مهرجان ثقافي شعبي، بغية توحيد الصف حيث قام الشباب بالتمثيل المسرحي والغناء مع كل الأطياف والأنغام رغم تباينها، كما أورد ذلك الباحث أبوبكر خالد با في مذكرته بعنوان (الحاج محمود عمر با مؤسس كبرى الحركات: الفلاح) فيما يلي:

"الحاج محمود يفتح الملف مع الشيوخ في دكار

... أراد الحاج محمود أن يكشف لزعماء الطرق الصوفية مبادئه، فتوصل إلى ذلك بأن أَلَفَ مسرحية ثقافية دينية تحت عنوان الوحدة، دعا إليها الوجهاء والعلماء الدينيين في العاصمة السنغالية، فقامت فرقة من طلبته بتمثيل الطريقة التجانية وتقاليدها وعقائدها، و ما تشيعها و تقذفها للطرق الأخرى، و كونها أكثر الطرق بساطة و أقلها تكلفا بيد أنها أجلها و أعلاها قدرا، لتلقي الفيوضات الإلهية.

فقامت فرقة أخرى بتمثيل الطريقة القادرية و دورها الرائد في هذه البلاد، و كونها الأصل و ما عداها فرع و ترهات لا تسعد سالكها و لا تفلح قاصدها بالوصول إلى باب الرحمن .

و قامت فرقة ثالثة بتمثيل الطريقة المريدية التي هي ذات تجربة ناجحة لشخصية إفريقية صرفة، أحبت رسول الله صلى الله عليه و سلم و تفانت في هذا الحب حتى من الله عليها فيوضاته القدسية ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ...

فقد أبرزت كل فرقة جانبا مبدئيا من جوانب الطريقة التي تمثلها فبرز بذلك التباين الصعب التوفيق أمام المشاهدين و حينما واجهت هذه الفرق بعضها ببعض ادعى كل بوساطة خطيبها أنها على الصواب معتمدة على بعض النصوص و أقوال أئمتها ...

ثم دعا أحد أفراد الفرق إلى فكرة الاحتكام فوافق الجميع عليها بالإجماع و على الفور، برز القاضيان العالمان على ساحة المسرح ليحلا عقد المسرحية على جميع اللغات الوطنية، و الحال أن الفرق التي تمثل دوائر للطرق الصوفية جالسة على الحدة في مواجهة بعضها البعض في معرض المسرحية .

أحد القاضين : هل الإسلام دين التوحيد ، فارتفعت الأصوات من قبل الدوائر ؟ نعم.

هل الإسلام دين العلم و العمل ؟ فارتفعت الأصوات نعم نعم .

هل المسلمون إخوة ؟ فارتفعت الأصوات ، نعم نعم

أحد القاضين : المسلمون إخوة المسلمون إخوة نسالم من يسالمنا و نعادي من يعادينا ، فقامت الفرق واستقبل بعضها بعضا و تشابكت أيديها إلى عنان السماء و هم يرددون عبارة : المسلمون إخوة المسلمون إخوة .

و من أبرز الذين حضروا إلى المسرحية الحاج سعيد نور تال، الحاج إبراهيم نياس ، الحاج عمر كن ، (صهر الأخير) الحاج عبد العزيز مالك سي الحاج شيخ امباكي ، الحاج قادر جاج ، الحاج جكاجاج الحاج سمبا شام السيد باتي مابو السيد شريف لام كما حضرت كل الجاليات العربية في دكار .

فقد نجح الحاج محمود با، بإعادة ثقة الأعيان و الشيوخ نحو حركته ، وعم البشر وجوههم و تعالت صيحات الإعجاب و التقدير في كل ركن في ميدان (شَانْدِي كُرْس بدكار) ثم تناول الشيخ الحاج إبراهيم نياس رحمه الله الكلام فأفاض في الحديث فقال : إنه يزيد تأييدا لا حد له لهذه النزعة و هذا المبدإ البارز في هذه المسرحية ، و قال أيضا إن المسلك الذي سلكه الحاج محمود في تعليم أولاد المسلمين الإسلام لا مفر منه إن كنا نريد أن نورث ديننا لأولادنا .

وقال «الحاج عبد العزيز سي»: إنه من الآن فصاعدا أسير للحركة الفلاحية وسيبذل كل ما يستطيع لتأييدها، وأوصاه بالصبر وقال لا يأتي أحد بمثل ما أتيت به إلا ولقي المتاعب أمامه.

و قال «الحاج سعيد نور تال»: إنه عرف «الحاج محمود» منذ أن وجده بمكة المكرمة و هو يتمتع هناك بسمعة طيبة بين معاشريه، وأنه مفخرة للفوتيين في الحجاز بعد ألفا هاشم و شجعه و أبدى إعجابه بالدروس التي ألقيت اليوم ، و أخيرا أوصاه بالتفاهم مع شيوخ البلاد .35"

بعد هذا النموذج المحلي لوحدة الصف الإسلامي، يبدو لي في إطار أشمل أن هذا المطلب يمكن تحقيقه على مستوى الأمة، وفي تقديري أن «الدكتور عبد العزيز عبد الله الحميدي» في كتابه «الرسائل الشمولية» قد مهد طريق الوحدة في إطار التنوع، وكنت أعطيت للدكتور محمد أحمد لوح نسخة مصورة منه، وقلت له عابرا: حبذا لو كنت أنت مؤلف هذا الكتاب كإفريقي عايش هذه الحقائق.

وأعتقد جازما أن التوفيق بين المفاهيم أمر ممكن لو سعي له حق السعي على أساس "الوحدة في إطار التنوع " لاسيما أن تصحيح المفاهيم مطلب ممكن، ولكن يسبقه حوار هادف:

---

35 . أبو بكر خالد عمر باه، «الحاج محمود باه: مؤسس كبرى الحركات: الفلاح»، ص: 76، 77.

أ- الصُّوفِيَّةُ وَالسَّلَفِيَّةُ بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ:

لا شك في أن المفاهيم تتكيف مع البيئة والمجتمع والجماعة، فتصبح ذات مدلولات خاصة، كما يقال إن الإنسان ابن بيئته، وقد تتصادم مفاهيم مختلفة لعوامل معينة بين فئات أو بيئات متباينة ، فينتج التناحر و التنافر بين أبناء أمة واحدة مما يتولد منه صدام بين الحداثة والأصالة أو الدخيل والأصيل ، ما يمكن اعتباره تيارات متباينة لفكر واحد ، أو روافد مختلفة لنفس المنهل، ومن هنا يأتي دور الباحثين و المصلحين الاجتماعيين في تقريب وجهات النظر، لحل الخلافات الناشبة من سوء التفاهم أو اختلاف المشارب، فالصوفي الملتزم في سلوكه وعمله واعتقاده، يساير الأمة في أساسياتها وضوابطها، كجزء من كل، كذلك الحال بالنسبة للسلفي أو الشيعي الملتزمين، فمصدر الجميع هو: الكتاب والسنة، فيسعى لهما كل باجتهاده ومفهومه، حسب الأصول و قواعد الاستنباط.

والمتصوف كبشر لم يوح إليه، وكإنسان لم يحم بالعصمة، يبقى في تصرفاته مدار الأخذ والرد، على أساس العلم والدراية، بعيدا عن الأستاذية، باعتبار أن المتصوف مجتهد إن استوفى شروط الاجتهاد، فإن أصاب أو أخطأ فيؤخذ له أو عليه.

ومن المعلوم أن لكل فئة مصطلحاتها ومفرداتها وفنها في الأداء اللغوي والاصطلاحي، مما يحتاج إلى إنصاف ونزاهة قبل إصدار أي حكم مسبق، بناء على موقف فئة أخرى أو مصالح قوم آخرين يسعون من أجل الهيمنة أو التسلط الفكري، مما يجر إلى اندلاع حرب بالوكالة.

فإذا اعتبرنا التصوف و رجالاته جزء من الأمة الإسلامية يتم التعامل معهم بناء على القواعد السليمة على أساس من الكتاب و السنة، فهو ذا الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه، شيخ الطريقة التجانية يعلن ذلك بالتصريح ليكتب: (إذا سمعتم عني شيئا فزنوه بميزان الشرع فما وافق فخذوه و ما خالف فاتركوه).

فلم ير الشيخ في شخصه قدسية و لا في أقواله و كتاباته وحيا ليبني عليه طريقته ومقولاته ومفاهيمه.

لقد دار على مر العصور حوار مفتوح بين علماء الطريقة التجانية ومنكريها دون إخراجهم من الملة أو رميهم بالشرك والبدعة، بل توقفت الردود على مواجهة الحجة بالحجة، رغم تأجج التصريحات وشدة لهجتها، والمكتبة الإسلامية ثرية بهذه الردود العلمية.

كما أن المتتبع يرى عند السلفية من يفتحون باب الحوار على مصراعيه، والنقد البناء على أسس علمية سليمة خلاف ما يخيل إلى البعض، أنها فئة

متزمتة ومنغلقة على نفسها، فمن علماء هذه الجماعة المخلصة من يرى أن السلفية شاملة لكل المسلمين، بل أن الإسلام في ميادينه المختلفة يتسم بالشمولية بما في ذلك العقيدة والعبادة والفرقة الناجية والطائفة المنصورة وأن الإسلام في حد ذاته شامل للرسالات السماوية.

لقد وجدت كتاب «الرسائل الشمولية» الذي أهداه إلي مؤلفه-منذ أكثر من عقد من الزمن-«الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي» كتاب نشرته «دار عيون المعرفة» بمكة المكرمة، وقامت بطبعه، وتوزيعه «دار الدعوة»؛ فيقول الدكتور الحميدي في مقدمته:

«وإن مما دفعني إلى تأليف هذه الرسائل ما رأيته من واقع بعض المسلمين السيئ، حيث تفرقوا شيعا و أحزابا، و تنافرت قلوبهم، وتشتت شملهم. وكان من أهم الأسباب في ما جرى من الشقاق بين بعض أهل العلم منهم وإشغال أنفسهم في الردود بعضهم على بعض واتهام بعضهم بعضا في دينهم»[36]

و يضيف الدكتور الحميدي:

«ولقد جرت محاولات جادة لجمع علماء المسلمين تحت لواء واحد ، خصوصا في هذا العصر على اثر انتشار الصحوة الدينية و تعدد الجماعات الإسلامية ولكن حال دون النجاح في ذلك اختلاف بعض أهل العلم الذي تولدت عنه اختلاف القلوب و كانت العقبة الكبرى

---

36. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، الرسائل الشمولية، ص: 5.

التي تحول دون اجتماعهم هي الخلافات العقدية التي انبنى عليها حكم بعضهم على بعض بالضلال و الابتداع و إذا كان أهل العلم يضلل بعضهم بعضا و يبدع بعضهم بعضا فإن اجتماعهم على عمل واحد يكون بعيد المنال ، فكان من أهداف هذه الرسائل رفع معالم واضحة لعلماء الأمة كي يلتقوا عليها و إن لم يتفقوا على رأي واحد تمهيدا لجمعهم تحت رابطة واحدة و لواء واحد».

ثم يضيف الدكتور الحميدي:

«ومن مقاصد هذه الرسائل أنها تعالج أنواعا من القصور في فهم بعض أمور الدين و هذا القصور ناتج من عوامل متعددة، منها الميل من بعض الدعاة إلى التميز عن سائر المسلمين و عدم مراعاة المحافظة على جماعة المسلمين العامة، و عدم الاهتمام الكافي بجمع كلمة المسلمين، و عدم وجود الفزع و الاشفاق من تفرقهم و ضعف قوتهم، كما أن من أسباب ذلك تركيز الأفكار على قضيا محدودة من الدين و ضعف الاهتمام بقضايا الدين الأخرى. كما أن محتويات هذه الرسائل سد هجوم مكثف من أعداء الإسلام بقصد تذويب المسلمين ودمجهم في أصحاب الديانات الأخرى»[37].

ومن هنا أتساءل عما إذا كان الدكتور محمد أحمد لوح بعد عودته، إلى أرض الوطن وطول تجربته في الواقع، ومعاناته من ردود أفعال متعددة، من مؤيد مبالغ في التأييد ومخالف ساخط، وطرف آخر منتقد بموضوعية، يأخذ

37. عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، الرسائل الشمولية، ص: 5، 6.

العبرة من هذا وذاك، لتكون تلك خطوة أوبة نحو الوحدة الشاملة في إطار التنوع.

ب-زَلَّةٌ بَيْنَ الْعَمْدِ وَ الْخَطَإِ

لا شك في أن الدكتور محمد أحمد لوح كان يسعى ككل دارس جامعي إلى اكتشافة علمية[38]، فتكون أطروحته لبنة لبناء سرح شامخ للفكر، وسبيلا لتحقيق طموحات شخصية، في أرض كان يعتقدها سائبة ليبني على أنقاد ومخلفات الغير، من خلال الهدم قبل البناء، فأدلى بدلوه في بحر لجي عميق، وطاف بعالم يدور حول نفسه، عودة إلى ذي بدء، السعي فيه من أجل جديد يتصادم مع حقيقة أن لا *جديد تحت الشمس*، فما من مقولة إلا وسبق سياقها، ولا من فكرة إلا وقد تم تناولها، من جهابذة العلم، حتى أن الشاعر المقدام تساءل وهو يبحث عن جديد، في أحد الميدانين: عند الوغى، وفي القريحة، فقال عنترة يومها .

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

[38] يتضح من خاتمة كتاب التقديس دافع الباحث لاختيار الموضوع وهو التوصل الى اكتشافة علمية لم يسبق إليها، فلجأ الى التصوف ورجالاته، مثل ما أعتبره اكتشافة، مع تأليف أبي الفضل الفلكي راجع كتاب التقديس مج.2. ص:316

فكيف بهذه المقولة في العصر الجاهلي البائد والمتخلف، عن عصرنا اليوم، عصر تدفق العلوم والفنون، فلم تعد من حبة أو خردل في السماء أوفي الأرض إلا أوتي بها، وقلبت ذات اليمين وذات الشمال.

وكانت هناك محاولة أخرى للإتيان بجديد من أبي العلاء المعري حين قال متباهيا:

وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

فإذا بفتى غرير، لم يبلغ سن الرشد، يسمع من أبي العلاء إعجابه بنفسه ليقول له: إن العرب أتت بالحروف الهجائية ثمانية وعشرين حرفا فهل لك أن تضيف إليها حرفا، فنظر أبو العلاء المعري إلى الولد، ليذوب إعجابه بنفسه ذوبان الجليد تحت حر الشمس و ليندم على استعجاله وإعلانه الجسيم فقال للولد الصغير: سيكون لك شأن يذكر إن عمرت، وما كان تصريح الولد سوى صوت حق على لسان طفل بريء.

نفس الحقيقة تتكرر كلما اندفع المرء في مواقفه المرتجلة، قبل التأني والتأمل والتحري اللازم، بالتفوه أو إرسال القلم، *فالكلمة أنت مالكها ما لم تطلقها فإن أطلقتها ملكتك*، فإن كانت صدقا وحقا قائمة على الموضوعية والتحري والمقابلة مع ما عند الغير، رفعت من شأنك نحو العلى، وإن كانت مظنة وتخمينا بل تلفيقا وإرضاء للغير حطت من شأنك نحو الهاوية، ومن علمك وصورتك وإن كانت لامعة.

إنها بديهيات وحقائق اصطدم بها من قبل رجال ظنوا أن كلمتهم لن تنحط إلى الأرض، فإذا للحق صولة فيستقر وللباطل جولة فيضمحل، كالزبد يذهب جفاء، أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

هكذا دأب الباحث غالبا مرحلة دراساته العليا عند تقديم رسالة لنيل درجة علمية، فيحتاج إلى اكتشافة لم يسبق إليها، فإن أرادها خارقة أو معجزة خالدة، أو إرضاء للغير، واعتبر أن الفرصة مواتية ليتسرع بجواده الجامح، فيصاب بكبوة وانزلاق وكسرة لا تجبر.

من هذا المنطق فإن البحث يحتاج إلى منطلقات و ركائز أهمها المعلومات الميدانية و المقابلات المباشرة، مع من يعنيه الأمر، للأخذ من المصدر عينه فتتم المقابلة بين الرأي و الرأي الآخر، ثم أنه من البديهي أن المقدمة لا تصلح أن تكون نتيجة، وإلا كانت قناعة ورأيا لشخص أو مجموعة، فيتحتم في الدراسة الموضوعية أن يتم الجمع أولا ثم الترجيح أو التخطيئ عن بينة، وإلا فإن توقفت الدراسات على بطون الكتب لا من صدور الرجال، ومن أرض الواقع، لمعرفة الحقائق، فإنها- مهما كثر العزو و الإحالات- تبقى ناقصة، وقد تكون مجرد تلفيق و حكم مسبق، وإدانة غائب، بجريمة هو عنها بريئ، فالإحالات والعزو والتنصيص عامة، ما هي إلا مادة صماء، وحرفية جوفاء وسلاح ذو حدين.

فالاعتماد على النص وصحة مصدره لا يكفي، فقد يكون مبتورا في مفهومه أو منقطعا أو مرفوعا أو تورية أو كناية، منطلقة من ثقافة الفرد

ومفردات الفئة، فللقرآن قراءات عدة يختلف عندها المفسرون اختلافا جوهريا فيقبل منهم جميعا بناء على قواعد الاستنباط واستعمال الترجيح في الدراسات المقارنة.

لقد عرف من بين المستهزئين من يقف بالآية عند: "ولا تقربوا الصلاة" وآخرون عند: "ويل للمصلين" في تحريم الصلاة، و"الآيات الشيطانية" التي أثيرت في مطلع هذا القرن لخير شاهد، والتي تعود جذورها إلى بداية الوحي في المرحلة المكية، مع سورة النجم.

لقد أوخذ على المستشرقين، رغم أنهم يوردون الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة، والتاريخ الإسلامي المتواتر، وبأن عملهم منحصر في إثارة الشبهات والتشكيك، بمنظار يعكس وجهتهم الخاصة ولغرض مبيت.

يجمع هذا النوع من الدراسة الذي نجده عند الوهابية- غالبا- الذين هم على نفس المنوال الاستشراقي، فيتحولون، إلى خصم وحكم في آن واحد، فيتسترون وراء ذريعة العلم والموضوعية، فيصح في حق الفئات الثلاثة المذكورة: - من مستهزئين ومستشرقين ومهاجمين للفكر الصوفي، في أسلوبهم وإحالاتهم للنصوص- أنها: كلمة حق أريد بها باطل.

فالكلمة ومشتقاتها، والنصوص ومضامينها، لا تكفي للكتابة عن الغير سعيا لتخطئته، ولأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، من خلال وهميات لا تغني

من الحق شيئا، فلكل فئة خصائصها ومفرداتها، فالذوق والوجدانيات بحاجة إلى ممارسة.

فتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي من الممكن طرحه في صيغة تقديس الأشخاص في الفكر السلفي، الأمر الذي لا يعدو تراشقا بين معسكرين: مشيخة صوفية ذات عبارات ملفتةٍ ومُبْهَمَةٍ وغامضةٍ من جهة، وامتيازات اجتماعية وأدبية وروحية، من أخرى، مقابل مشيخة سلفية تعبد الله على حرفية وقوفا عند ظاهر النصوص وأسلوب وعظي زاجر من ناحية، كما تنعم بزخارف الحياة الدنيا ورفاهيتها وترفها من ناحية أخرى، مما يذكر مقولة أبي الحسن الندوي يا عباد القصور رفقا بعباد القبور.

فالأساليب المنحاز ة في البحث العلمي، تجعل منها مجرد طرح إيديولوجي يخدم اتجاها معينا، فيختفي العلم الذي يقف عند حد النزاهة، والإصغاء إلى الطرح الآخر، ولو خالفك أو خالفته، حتى لا يضيع حق تحت ستار الفئوية والجهوية والحزبية، مما يسبب حالة من التزمت وأحادية الرأي والعنصرية الفكرية.

خَاتِمَةٌ

الصوفية هي الحياة بأسرها، والحياة هي الصوفية في أسرارها؛ إذ إن التصوف يعني الحياة الروحية، والتي لا حياة دونها، تلك هي العلاقة الجدلية بين الحياة و التصوف؛ فمدار رحاها هو الإنسان، و الهمة من أجل السمو الروحي في حياة أفضل؛ فكان عنوانها العريض الهمة، فجاء في مقال سيدنا الشيخ أحمد التجاني«رضي الله عنه : (**هِمَّةُ الْإِنْسَانِ قَاهِرَةٌ لِجَمِيعِ الْأَكْوَانِ**)

ويختلف التصوف عن غيره، في كونه منفتحا و منسجما تجتمع فيه المادة و المعنى، فطرقها تمتاز بشكر النعم، فتملك تكوين أجيال على درجة عالية من قيم الإيمان، والصدق، والنزاهة، والرحمة والعدالة، والحرية، والفعاليَّةِ في العمل؛ و ذلك حلم الإنسان اليوم.

تاريخ يعيد نفسه:

كانت الطرق الصوفية الصحيحة، قد ظهرت في وقت انتشرت فيه دعوى البهتانية، و عمت ظاهرة الاستدراج ، و انتشرت فيه الزوايا و كانت فيها خبايا ؛ فعم الظلام، و اشتاقت الأنفس إلى النور ، فتعددت الخلوات وتفنن الرجال في الأذكار و ظاهرة المشيخة ؛ فادعى كل وصلا بليلى، حتى انفلق النور في وسط الظلام فتبين الرشد من الغي ، فاتضحت معالم في طريق القوم، فتسابق إليها الرجال العظام بأقدامهم الراسخة في العلم و الزهد والتقوى ؛ فجاءت الهمة العالية و الهداية الربانية لتوطد تلك المسيرة المليونية التي وصلت إلى السواحل الغربية الإفريقية، فكان رمزها السبحة والسيف،

والقلم، ثم فيضة ستعم البسيطة ، و كما يصرح الوالد الحاج محمد الخليفة انياس» الكولخي السنغالي في كتابه ، «الكبريت الأحمر في مداتح القطب الأكبر» :

عمت فيوضـــات هذا الشيخ سيدنا ❁ أهل البسيطة أهل البدو و الحضري
في الصين والهند أســـرار الطريقة مع ❁ أنوارها في رجـــــال كمل غرري
في الشرق و الغرب و الدنيا الجديـدة مع ❁ أفق السماء كضوء الشمس والقمري
ليس التميز بالملبـــــوس شيمتهم ❁ و في فناء فناء رتبة الســــــتري
فالملك مع ملكوت الله فـــاض بها ❁ وفاحت الأرض من فيضانه العطــري
من شم فيحة هذا الفيض نـــال هدى ❁ كما ينال صفاء القلب من كـــدري
أحيى الإله به موت القلـــوب فما ❁ قلب به غير مشروح و مبتشــــري

فقدكان للصوفية رجال تعد لهم المزايا العظام فعمت حواضر الطرق أنحاء الأرض. أولائك الرجال هم آباؤنا؛ فما أشبه الليلة بالبارحة، فالتاريخ يعيد نفسه مرة أولى في صورة مأساة؛ و مرة أخرى في صورة ملهاة!.

زوبعة في فنجان:

إن عالمنا اليوم حائر يبحث عن عصا نجاة في بحر أمواجه مترامية، فاعتمد البعض و لمدة من الزمن على الحل المادي للأزمات، و أن الفقر والشقاء نتيجة الحرمان؛ فتهافت الفلاسفة، و هام وراءهم البشر؛ فدار الحديث حول المادية الجدلية و التاريخ الجدلي؛ فجاءت أطروحة ماركس: فأثيرت المرحلة البدائية و الإقطاعية و الرأسمالية و الإمبريالية؛ فنشر لها

الأعلام، مما دار بالكرة الأرضية شرقا و غربا؛ حتى حسبه الظمآن ماء فإذا هو سراب، فانهار جدار برلين الكبير و انكسر إيوان السُّوفِيْيتْ العظيم، وسور الصين القديم، وتبددت غابات كوبا و هافانا الشاسعة؛ و قالوا بنهاية التاريخ؛ لأن العالم لم يعد ازدواجيا.

فجاءت الرأسمالية لتفتخر على الحضارات، و ادَّعت أميركا و الغرب بأنها اللبنة التي بها تم بناء الهيكل، و أنها الفرد الجامع، و القطب الأوحد، فارتفع ضجيج الديمقراطية و الحرية الليبرالية، و شاعت الممارسات المنافية للقيم و الأخلاق؛ ليصبح العالم بلا قيم ، الوسيلة فيه و الغاية هي السلعة، و القانون ما بين العرض و الطلب؛ فعادت المادة في ثوب جديد؛ فظهر إِعلام الأقمار الصناعية، فأصبح الكوكب الأرضي قرية صغيرة؛ فسادت الأصوات و الصور و الكتابات من خلال "النِّيتْ، و السَّاتْ، و المْوبايل" فَمُلِئَتْ تلك الأوعية بإعلام دعائي يصير الإنسان حيوانا يلهف، و المادة صورا متحركة.

إلا أن أميركا المدعية بأنها تملك الأمن و الأمان و أنها المؤمنة و لا غيرها، فإذا بجدار مَنْهَتَانْ و بِنْتَكُونْ و الأَبْيَضْ تنهار عليها ، و أصبح الغرب خائفا يترقب ! .

حتمية الفجر المرتقب:

و في الوجه الآخر صورة ضبابية اختفت من شدة الظهور فهي البقية الباقية و السر الأعظم و الرحيق المختوم.

وفي بدء الخليقة دارت الحياة في البحث عن المطلسم فكانت مأساة التاريخ، ففي حقبة من الزمن اعتقد الجن بالمادة فعبدوا النار و اعتبروها غاية، فأهملت الروح على حساب المادة، فملئت الأرض جورا و ظلما؛ فعم الفساد، و سفكت الدماء.

وفي الطرف الآخر كان التسبيح و التقديس، فلجأ إليه الجن مضطرين؛ فكانوا في صف الملائكة المقربين، فأراد الله ما أراد، فكان المنتظر، و تم الاختيار من حيث لم يحتسب.

فالطينة الهائمة هي التي تحظى بنفخ الروح و بشرف السيادة ، فبدأ الصراع بين الحق و الباطل و الخير و الشر ، و قامت الحجة بالعلم : ﴿ وَعَلَّمَ آدم الأسماء ءَادَمَ كُلَّهَا﴾.(سورة البقرة: 31)

فجاء الإعلان عن حياة ضنك على ظهر الأرض ، بمذاق حلو ومر في آن واحد؛ فجاء دور الرسل و الإنبياء و الأولياء ، و سار على الدرب رجال عظام مِنهم مَّن قَضَىٰ نَحبَهُۥ وَمِنهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبدِيلا.

هذا التاريخ بمراتبه الثلاثة : الرسالة و النبوة و الولاية؛ تجتمع مرة وتفترق أخرى : فكل رسول نبي و ولي و كل نبي ولي و كل ولي ولي ؛ فيبقى المدد و الفيض ، فيستقر الإنسان في أسمى الرتب و أعلى المقامات لكونه عبد الله : (سُبحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسرَىٰ بِعَبدِهِۦ) . (سورة الإسراء: 1)

ففي المقابل التاريخ الجدلي الذي لا يستقر على حال: إرتفاعا وهبوطا: نعمة تتحول إلي نقمة و أزمات في كل الأصعدة، بدء بالغذاء و وصولا إلي

المصاريف مرورا بالاقتصاد و السياسة فأين المفر ؟ وتتضح الأمور كلما اقتربت الساعة، فيتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فالمادة العارضة الزائلة لا تصلح أن تكون غاية ، و المخلوق لن يكون خالقا ؛ فأنصار التهويل مخطئون مهما كبرت و تطورت أبواقهم ، و تعددت مدارسهم الدعائية التي انطلقت من اختبارات على الحيوان؛ فجاءت أطروحة بافلوف، و احتل الخطاب و الرسم الساحة: و إن من البيان لسحرا.

إلا أن التكرار يفقد السحر مفعوله، فتعود الأمور إلى طبائعها ، ويتجدد الطلب إلى روح تسري في الجسد الهامد، و إلي حياة يستقر فيها الإنسان؛ فتصبح لحظة الانتظار حادة و حاسمة؛ فالكل يتطلع إلي إعالم يحمل في طياته رسالة هادفة في كل رقعة وكل مدينة وَحَيٍّ؛ فالشوق إلي بديل يحيي القلوب و يرفع المعاني فهوقاسم مشترك.

و لهذا وجدنا الشعوذة و الأوهام و الدعاوى البهتانية و التفنن في الطقوس والكهنوتية، تنتشر، مُنبِئَةً بحيرة في البحث عن الْقِيَم، حتى كأن الدين أصبح جزء من المتاحف العريقة؛ فيأتي التقديس لتراث القدامى؛ مصداقا للآية الكريمة : إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ٢٣ (سورة الزخرف: 23)

الصوفية تتوج العولمة

كانت العلوم في وقت من الأوقات حبرا على ورق، فاكتظت حواضر الشرق و اهتزت بغداد و انتشرت المحافل العلمية و كان التفنن في العلوم و الفنون طريق الشهرة و الغناء ، فتسابق قوم إلي تلك الظاهرة التي ملأت الآفاق فكثرت الفرق، وتناحرت حول بلاط الحكام، وتشعبت الصراعات بين الجهوية والفئوية والأقليمية ونشطت النعرات العرقية ؛فبرز رجل يشار إليه بالبنان لعلمه الوافر و فنيته الواعية: فاعتكف الإمام الغزالي رحمة الله عليه ، عقدا من الزمن ليخرج بعناية ربانية وبمعية قدسية كتابه التفحة "إحياء علوم الدين".

فصرخة الإمام الغزالي ملأت الأذان و أيقظت النيام ، و كانت صحوة بعد سبات، فسبق بها الغرب الذي اقتبس منه الشك المنهجي ، و انتحل من الحلاج "الأنا" الدالة على الذات و على المسؤولية، فكانت الركيزة التي انطلق منها ديكارت و الكارتيزيانية لتعلن عالما يحذى حذوه في العقلانية و الموضوعية؛ فتلك بضاعتنا بصماتها تدل علينا، فتاريخنا الإسلامي في الغرب شاهد على ذلك ؛ فرجال التصوف وقفوا برجليهم الأثنتين جامعين بين العقل و الإيمان ،تاركين آثارا قيمة مما ينفع الناس ، فجابر بن حيان و ابن سينا ، و عدد كبير قطعوا البرهان على حيوية و جدية القوم ومنهلهم العتيق: حياء و حياة ، إكسير يحول الحديد ذهبا و الحجر جوهرا.

و جاءت رسالة القوم تتويجا للمنهج ، فأصبح العسير يسيرا، و النادرمتوفرا ؛ فانفلق الصبح و انكسرت الأقفال بالفاتح الخاتم طريقة الناصر الهادي ؛ فتربى رجاا بلا خلوة ، و ارتفعت الهمة فاجتمع الفناء مع البقاء "و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ".

فالفيضة الربانية أحيت القلوب و أرقت النفوس فهي كَلِمَة طَيِّبَة وشَجَرَة مباركة أَصلُهَا ثَابِت وَفَرعُهَا فِي السَّمَآءِ.

إذا كان الوعاء قد اكتمل ، و الأرض قد هيئت ، و الأمثال و العبر قد عمت الأرجاء ، فالمنتظر هو الجوهرة التي من أجلها أعد الوعاء و هيأت الأرض و ضربت الأمثال ؛ فالعلة تدور مع المعلول وجودا و عدما.

فالتطور التكنولوجي الذي حول العالم إلى قبضة يد ليس وليد صدفة ، ولا غاية في ذاته ، لكنه حاجة في نفس يعقوب ، و في هذ الأطار يقول الوالد الحاج محمد نياس خليفة الكولخي السنغالي عنً صلاة الفاتح لما أغلق ، في كتابه الجيوش الطلع بالمرهفات القطع ما يلي:

إِذْ كُلُّ حُكْمٍ قَدْ أُنِيطَ بِسَبَبٍ تَأَخَّرَ الْحُكْمُ لِذَلِكَ السَّبَبِ

عودة إلي ذي بدء:

إن الرواد الأوائل من رجال الذوق و الوجدان الذين جمعوا بين الحقيقة و الشريعة و بين العلم و الإيمان، كانوا قد حولوا الأندلس إلي جنات تجري من تحتها الأنهار : بقطوفهاالدانية ، و رجال على الأرائك ينظرون ، فكانت العلوم و الفنون مسرحا يهيم فيه المجاذيب، فأرسلوا النفس على سجيتها ؛

ثم دارت الأيام دورتها و شاءت المقادير مآربها، فتراجعت أنفس قوم، فتحجرت بعد أن لانت و تغنت حولها الطبيعة، فصار الشاذ عندهم هو القاعدة و الفرع هو الأصل، فانقلبت الأمور رأسا على عقب ، فالحديث عن المحرمات أصبح سائدا، وأرتفعت العصا الغليظة على الرؤوس، ففقد التسامح و الاحترام، فضاقت الأرض بما رحبت.

إلى أن جاء يوم الجلاء ؛ فقامت الساعة و زلزلت الأرض ، و كان الغرب غداتها على موعد مع السماء التي هبطت فجأة ، فعمت الحسرة، وبقيت الأطلال، و كانت الثكلاء كالنائحة، فظل ذكر الحمراء و أخواتها مع أخوات كان، عاد الدين غريبا كما بدأ ، و عادت الصحراء الوعاء الوحيد الذي يليق بالإسلام ، فصارت هذه الحضارة الراقية نائمة تحت الرمال تنتظر يومها وساعتها الموعودة ، فأصبح الغريب غريبا بين ذويه، فكثر الجدل و النقاش عن النفاس والمسلمات، فالبعض يطنب في أن السماء فوقنا؛ و الآخر في أن الأرض تحتنا، فأصبح الشرك و البدعة، العملة المتداولة، ومنطق أهل البدو هو السائد .

فالنفس بمراتبها الثلاثة، و مراحلها السبعة لا يوقظها إلا من عاناها: فاللوامة، و الأمارة بالسوء، و المطمئنة، قد اختلطت في سلك قيدها، و الدنيئة والزكية، و الراضية، و المرضية، أحالها الغبار إلي أخبار؛ فدارت البحوث عن فك اللغز، و رفع النقاب، و كشف الغمة، وسُئِلَ عن السفينة، و الغلام، والجدار، و الكنز الذي تحته؛ إلا أن الحوتة قد نسيت عند مجمع

البحرين العذب الفرات، و الملح الأجاج؛ هناك البرزخ المكتوم، و الخاتم الأعلى.

فإحياء الدين مهمة تنتظر النفس المطمئنة ، فهل من مدكر ؟

فإذا كان الحاوي هو العولمة؛ فإن المحتوى هو النفس الراضية، فالشكل في حاجة إلى مضمون، و السر يسري بالإجابة، ثم إن الوسيلة إن سُخِّرتْ من أجل الغاية، كان العرض و الطلب وجهين لعملة واحدة .

إن العالم اليوم بمثابة بناء لم يبق منه سوى لبنة واحدة ليكتمل، فيتم الصفاء، و تعم المروءة، و يقترب المنى، و تعم المعرفة، و الإفاضة.

تلك هي الرسالة الحائطة بمركز الفهوم و المعاني.

فالعولمة بحاجة إليها حتى تدب فيها الروح؛ و تكون لها طعم فتخرج من الهرم المقلوب؛ و من جعل الحبة قبة، و القطار المتأخر، و الشخص الذي يعض الكلب ليكون حدثا؛ فتنتهي المغالاة؛ فتؤخذ الأمور بقدر؛ و تدفع بقدرة.

وعودة إلي حيث تشرق الشمس أردد ما قاله الوالد الخليفة الحاج محمد في كتابه «الكبريت الأحمر في مَدَائِحِ القطب الأكبر »:

قَدْ أَشْرَقَتْ شَمْسُ السَّمَا وَقْتَ الضُّحَى	فَتَنَـوَّرَتْ آفَاقُهَـــــا بِضِيَـــــاءِ
وَجَلَتْ دُجَى لَيْـــــلٍ بَهِيــمٍ دُجُنَّةً	فَتَرَاكَمَــــــتْ أَنْــوَارُهَا بِبَهَـــاءِ
حَتَّى رَأَى كُلُّ الْـــــوَرَى أَنْوَارَهَــــا	تَجْلُو عَـنِ الْأَبْصَارِ كُلَّ غِطَـــــــاءِ

فَغَدَا يَهِيمُ بِحُسْنِهَا مَـنْ لَمْ يَهِـــــمْ ۞ وسَلَا الْمُحِـبُّ مَعَاهِدَ الْـحَـــوْرَاءِ

إلى أن قال :

عَمَّتْ جَمِيعَ الْـخَـلْـــقِ فَهْي لِهَدْيِهَا ۞ وَلِنُورِهَا كَالشَّمْـــــسِ فِي الْأَضْـوَاءِ

وَبِعَينٍ مَاضٍ كَانَ بَدْءُ شُـــــــرُوقِهَا ۞ وَبِفَاسَ قَدْ سَطَعَـــتْ عَلَى الْأَرْجَاءِ

يَاقُـــوتَةٌ مَـا مِثْلُهَا مِـــنْ جَوْهَـــــرٍ ۞ بَـرَزَتْ بِحَضْــــرَةِ مَالِكِ النَّعْمَـــاءِ

إلى أن قال أيضا :

شَيْـــخِ المَشَائِـــخِ أَحْمَـدَ بـــنِ مُحَمَّدٍ ۞ فَأُولَئِـــــكَ الْأَشْـــــرَافُ هُمْ آبَائِي

حَازَ الْكَمَالَ مِنَ النَّبِـــــــيِّ وِرَاثَةً ۞ عَينُ الْكَمَالِ وَمَنْبَـعُ الْعَلْيَـــــاءِ

قَوْمٌ كِـــــرَامٌ لَا يَخِيبُ جَلِيسُـهُـــمْ ۞ نَالُوا الْعُلَى مِنْ وَاهِـــــبِ الآلَاءِ

ولَهُ الْكَمَالُ وِرَاثَـــــــةً مِنْ جَــدِّهِ ۞ عَيْنُ الْكَمَالِ وَمَرْكَزُ الْأَضْـــــوَاءِ

شَيْخُ المَشَائِـــخِ كَامِـلٌ مِنْ كَامِـلٍ ۞ مَنْ حَلَّ فَوْقَ النِّسْـرِ وَالْعَــــوَّاءِ

وَأَقَامَهُ رَبُّ الحَقَائِـــقِ بَـــــرْزَخًـا ۞ فَيضَانُهُ يَجْرِي عَلَى الكُبَـــــــرَاءِ

صَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ الْخَاتِمِ، وَعَلَى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ، وَمِقْدَارِهِ الْعَظِيمِ؛ صَلاَةً تَفْتَحُ لَنَا بِهَا أَبْوَابَ الرِّضَى وَالتَّيْسِيرِ، وَتُغْلِقُ بِهَا عَنَّا أَبْوَابَ الشَّرِّ وَالتَّعْسِيرِ، وَ تَكُونُ لَنَا بِهَا وَلِيًّا وَنَصِيرًا...» [39]

39 .بحث كنت قدمته في مؤتمرين: للتيجانية بالجزائر، و للمريدية بدكار» كما نشرته في تقديمي للطبعة الثالثة للجيوش الطلع. فنشرته هنا (بتصرف) خاتمةً للكتاب.

تم الفراغ من هذا الكتاب بحمد الله وتوفيقه يوم الإثنين9 من جمادي الآخرة1439

الموافق 26فبراير2018 بمقر والفجر بدكار سنغال

فهرس المحتويات

طُبِعَ في شهر مارس عام 2018م
بِمَطْبَعَةِ (La sénégalaise de l'imprimerie)، دكار، السنغال



هذا الكتاب

في هذه السطور، وبهذه العجالة، حاولت جمع الشتات، بين أبناء أمة واحدة، من أجل كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ولقد سبق لي أن سعيت لها، واليوم أرسل القلم على سجيته، لعله يحقق ما عجزت عنه اللقاءات، والخطب المرتجلة، والمساعي الواسعة، فتأتي الكتابة لتقر ما دون، وتعيد إلى الجادة ما نشر.

كان العلم الناصع والفكر الخالص والأسلوب السلس طريق العلماء في العصور الذهبية، فبرغم تباين آرائهم وأفكارهم، كانت المناظرات العلمية تلطف الأجواء وتدعم حيوية الدين والمعرفة.

فكيف بفروع علم واحد، جامع مانع، يوجد فيها حاجز بين أبناء أمة واحدة، يؤمنون برب واحد.

لا شك أنه نتيجة ضيق الأفق، وإفرازات الانغلاق على الذات، إلا أن مواجهة الحجة بالحجة، والبناء على الموضوعية في البحث، لا يولد إلا ثراء ومغنما، وازدهارا حضاريا وثقافيا، للفرد والجماعة والأمة بأسرها.

المؤلف